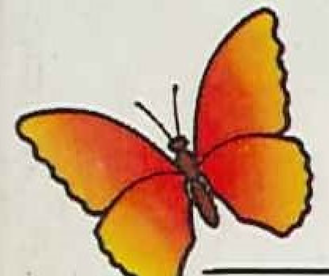
كتب الفراشة - القصص العالميّة

مُغامرات هاكلبري فِين

القصص العالميّة

٢٠. مُغامرات هاكلبري فين

مكتبة لبنان ناشرون



كتب الفراشة

القصص العالميّة ٢٠. مُغامرات هاكلبري فِين

«مُغامَرات هاكلبري فِين» لِمارْك توين رِواية آسِرة مِن كُلّ جَوانِبِها. فالفَتى هاكلبري فِين – أو «هاك» – شَخْصيَّة مُتميزة مُحبَّبة إلى القارِئ. وهُناكَ أيْضًا شَخْصيّات أُخرى تَتنوَّع بينَ شُجاع ومُخلِص ومُنافِق وطامِع ألخ... أمّا الأَحْداث فَمُغامَرات مُتلاحِقة تَحْبس الأَنْفاس لِأَنَّها تعجّ بِالمَخاطِر وتَزخر بِالمُفاجآت وتَتَبايَن بينَ مَواقِف مَأْساويّة وأُخرى ساخِرة.

إنّه كِتاب يُقرَأ مِن أَوَّله إلى آخِره مِن دونِ مَلَل.

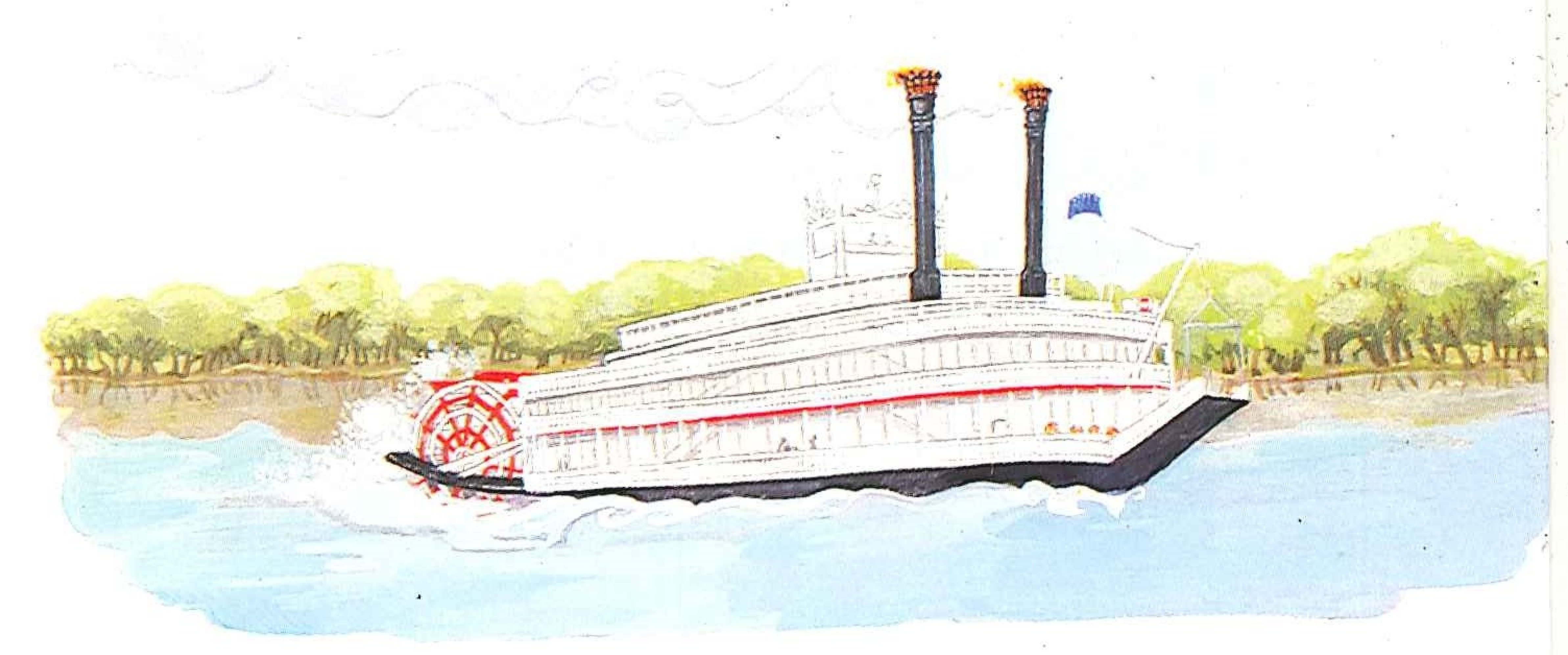


مكتبة لبنان ناشرون



كتب الفراشة - القصص العالمية

مُغامرات هاكلبري فِين



تأليف : مارك توين

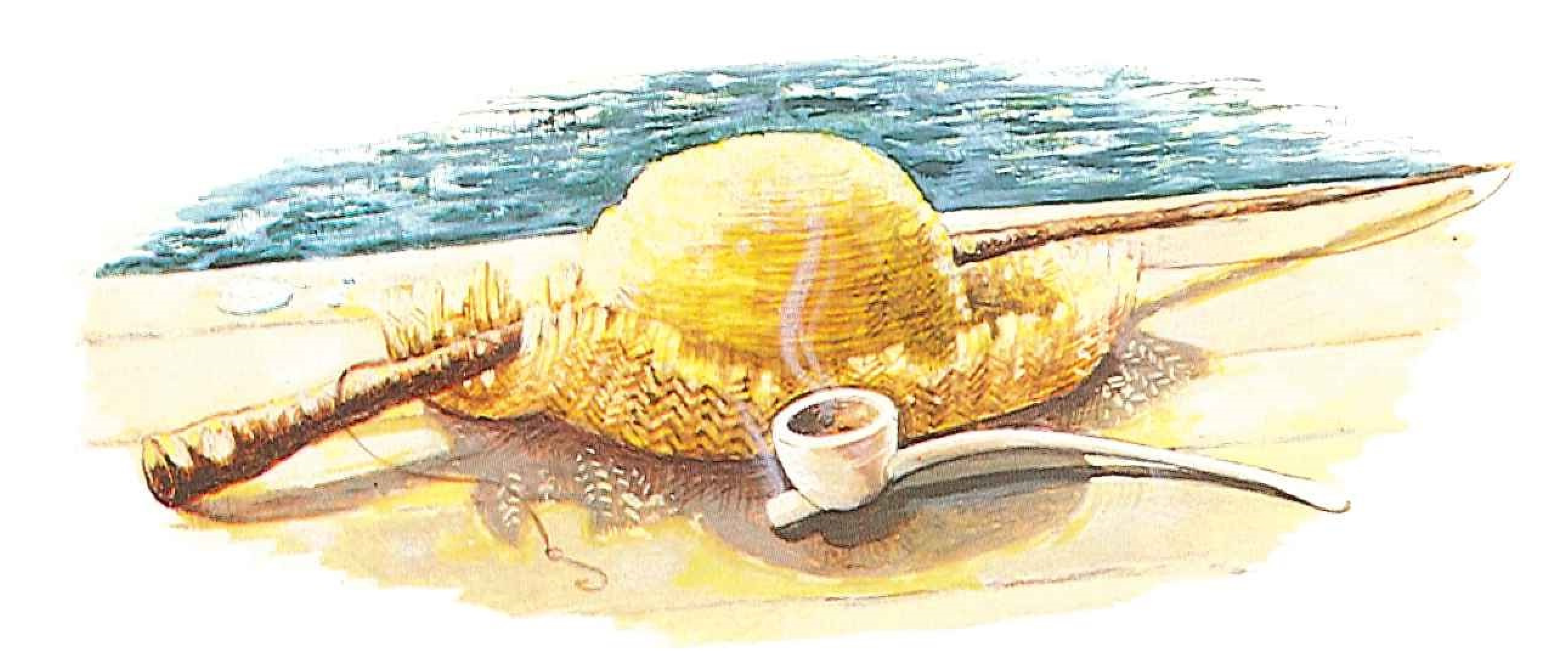
ترجمة : هاني تابري



مكتبة لبنان ناشرون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء ومُوزّعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٥
رقم الكتاب 01 C 196816
طُبِعَ في لبنان



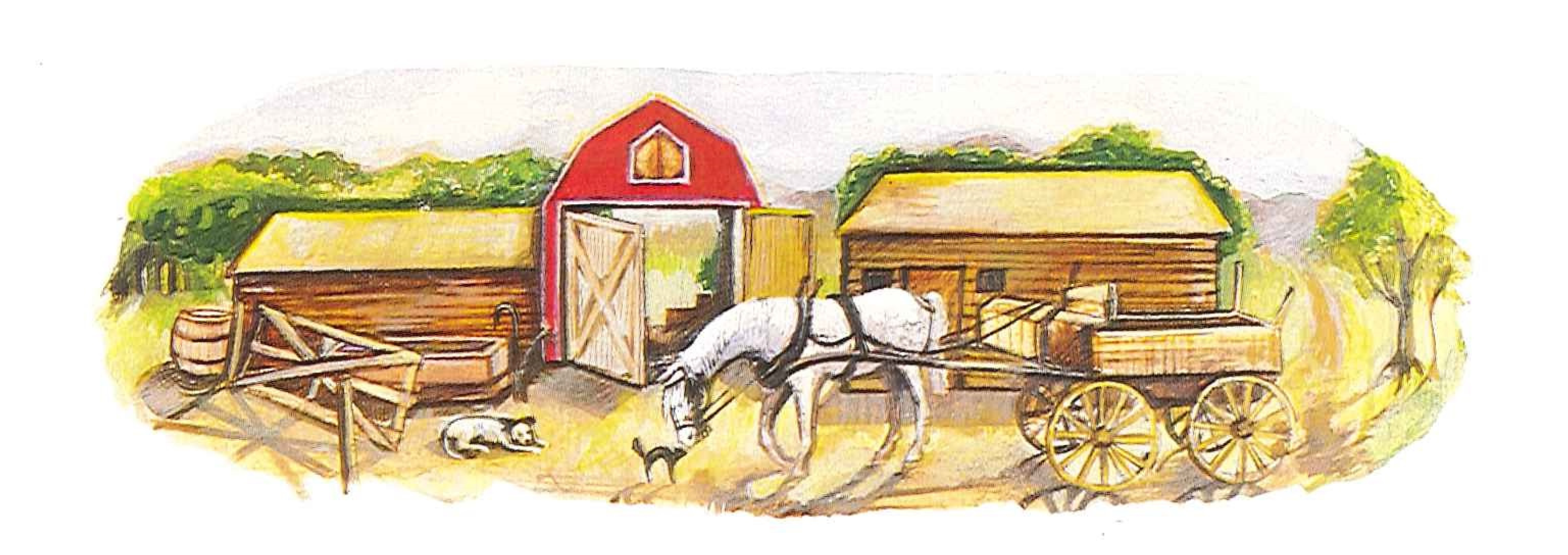
مقدّمة

قامَ مارْك توين بِكِتابَةِ «مُغامَرات ها كلبري فِين» (The Adventures of Huckleberry Finn) عَلى فَتَراتٍ مُتَقَطِّعَةٍ، فَقَدْ أَنْجَزَ الفُصولَ الأُولى خِلالَ عامِ ١٨٧٦ بُعَيْدَ ظُهورِ رِوايَتِهِ «مُغامَرات توم سُوير» (The Adventures of Tom Sawyer). ثُمَّ تَوَقَّفَ عَنْ إِكْمالِها، وعادَ إِلَيْها بَعْدَ ثَلاثِ سَنَواتٍ لِيَكْتُبَها بِشَكْلٍ مُتَقَطِّعٍ إِلى أَنْ أَنْهاها سَنَةَ ١٨٨٣، ونُشِرَتْ في السَّنَةِ التّالِيَةِ.

«مُغامَرات ها كلبري فِين» هِيَ رِوايَةُ مُغامَراتٍ مُثيرَةٌ ومُسَلِّيَةٌ. في الفَصْلِ الأَوَّلِ، نَتَعَرَّفُ إِلى راوِيَةِ القِصَّةِ وبَطَلِها «ها كلبري فِين» أَوْ «هاك»، وهُوَ فَتًى في الرّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ العُمْرِ. يُخْبِرُنا هاك عَمّا جَرى مَعَهُ مُنْذُ أَنْ خَطَفَهُ والِدُهُ السِّكّيرُ الفَظُّ مِنْ بَيْتِ الأَرْمَلَةِ السَّيِّدَةِ دوغلاس. ويَرْوي لَنا كَيْفَ تَمَكَّنَ مِنَ الهَرَبِ والْتَقى بِالعَبْدِ الفارِّ جيم، وتَرافَقا في السَّفَرِ في نَهْرِ المِسيسِبّي حَيْثُ واجَها الكَثيرَ مِنَ العَقَباتِ والْتَقَيا بِالعَديدِ مِنَ النّاسِ. ويَسْتَمِدُّ مارْك توين خَلْفِيَّةَ هٰذِهِ الرِّوايَةِ مِنْ ذِكْرَياتِهِ الشَّخْصِيَّةِ عَنْ نَهْرِ المِسيسِبّي عِنْدَما كانَ فَتًى. إِنَّهُ يَصِفُ - بِشَكْلٍ دَقيقٍ ومُفْعَمٍ بِالحَيَوِيَّةِ - المُدُنَ والأَراضِيَ وطَبيعَةَ الحَياةِ في مُحيطِ النَّهْرِ. كَما إِنَّهُ يَسْتَمِدُّ أَوْصافَهُ مِنْ ذِكْرَياتِهِ عَنْ مُخْتَلِفِ أَنْواعِ النّاسِ الَّذينَ عاشوا في تِلْكَ المِنْطَقَةِ.

ولَيسَتِ الرِّوايَةُ مَجْموعَةَ مُغامَراتٍ فَحَسْبُ ، فَهُناكَ شَيْءٌ أَعْمَقُ ، إنَّهُ دِراسَةُ شَخْصِيّاتِ النّاسِ وأَهْوائِهِمْ ، ونَظْرَةٌ ناقِدَةٌ إلى المُجْتَمَعِ . ومَعَ تَقَدُّمِ مارْك توين في السِّنِّ أَصْبَحَ ذا نَظْرَةٍ سَوْداءَ إلى طَبيعَةِ البَشَرِ . ومَعَ أَنَّ الهَدَفَ الأَساسِيَّ مِنْ هٰذِهِ الرِّوايَةِ هُوَ التَّشْويقُ والتَّسْلِيَةُ ، فَإنَّها تُقَدِّمُ لِلقارِئِ نَماذِجَ عَنْ أُناسٍ مُنافِقينَ وطامِعينَ وفاسِدينَ . فَهُناكَ آلُ شيپِرْدْسون وعائِلَةُ الكولونيلِ غرانغرْفورْد الّذينَ يَسودُ بَيْنَهُمُ العَداءُ المُميتُ والحِقْدُ البَغيضُ . وهُناكَ أَفْرادٌ ظَلَمَهُمُ المُجْتَمَعُ والنّاسُ كَهاكلبري فِين نَفْسِهِ وصَديقِهِ جيم الّذي كانَ ضَحِيَّةً لِنِظامِ اسْتِعْبادِ الزُّنوجِ الّذي كانَ سارِيًا في الوِلاياتِ الجَنوبِيَّةِ قَبْلَ انْدِلاعِ الحَرْبِ الأَهْلِيَّةِ . وهٰذِهِ الشَّخْصِيّاتُ - جَميعًا - تُقَدَّمُ إلَيْنا مِنْ خِلالِ نَظْرَةِ هاكلبري فِين إلَيْها .

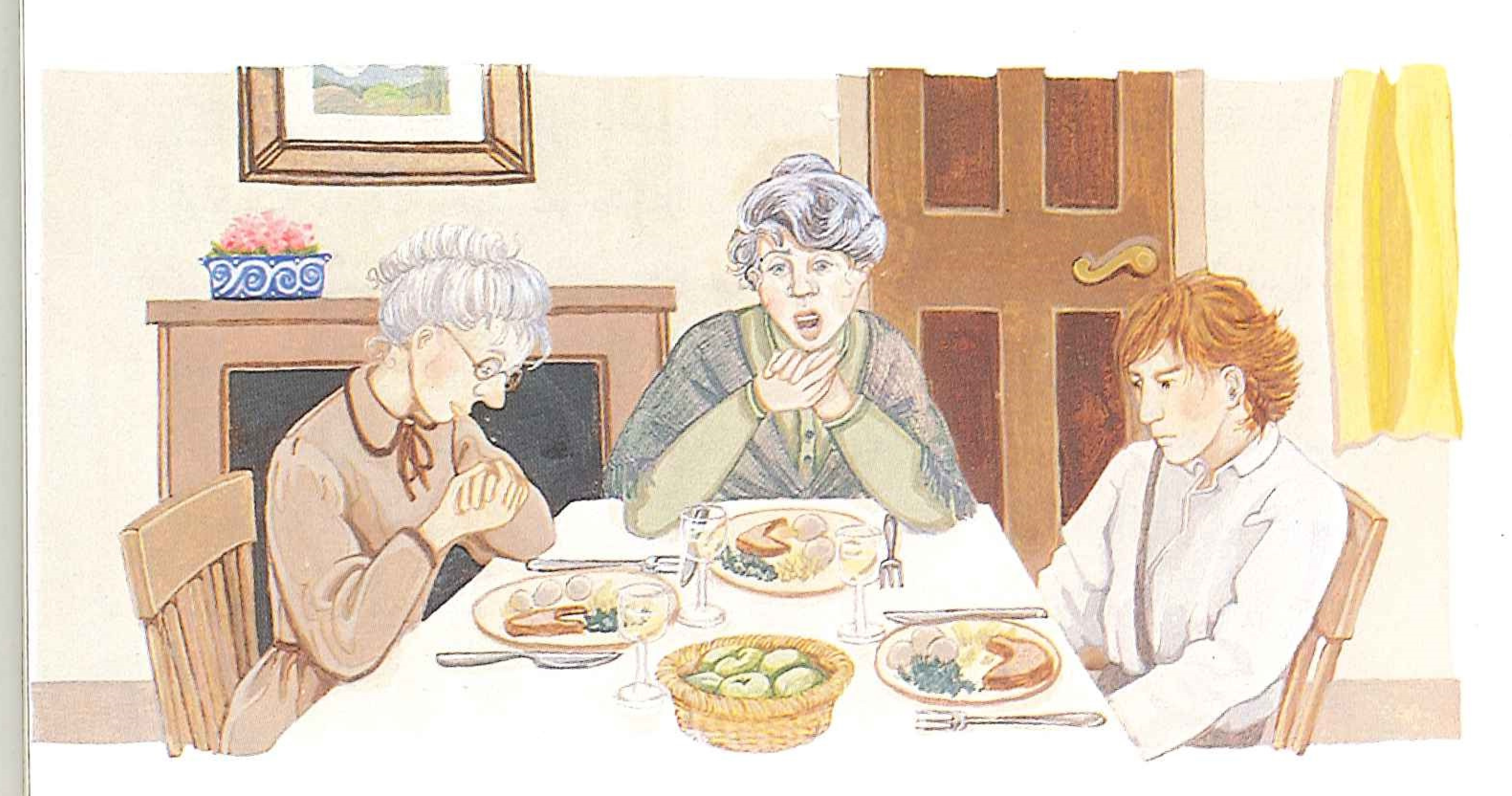
عِنْدَما ظَهَرَتْ رِوايَةُ هاكلبري فِين انْقَسَمَتْ آراءُ النّاسِ حَوْلَها . فَقَدْ صُدِمَ الكَثيرونَ بِصَراحَتِها القاسِيَةِ ، ولٰكِنَّ فَريقًا آخَرَ أُعْجِبَ بِمَزاياها كَقِصَّةِ مُغامَراتٍ شَيِّقَةٍ وكَبَحْثٍ عَميقٍ في طَبيعَةِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ والعَلاقاتِ الاجْتِماعِيَّةِ .


مُغامَرات هاكلبري فِين

وَرَدَ ذِكْرُ مُغامَراتٍ لِهاكلبري فِين في الكِتابِ السّابِقِ «مُغامَرات توم سُوير» . وقَدْ قَرَأْنا عَنْ أَخْبارِ بولي ، عَمَّةِ توم ، وصَديقَتِها الأَرْمَلَةِ السَّيِّدَةِ دوغلاس الّتي تَعَهَّدَتْ تَرْبِيَةَ هاكلبري فِين وكَأَنَّهُ ابْنٌ لَها . ورَأَيْنا كَذٰلِكَ أَنَّ شَقيقَةَ السَّيِّدَةِ دوغلاس الآنِسَةَ واتسون ، العانِسَ المُتَجَهِّمَةَ الوَجْهِ ، كانَتْ تُعْطي هاك (أَي هاكلبري) دُروسًا في العُلومِ والدِّينِ والأَخْلاقِ . وقَدْ وَقَعَ توم وهاك عَلى كَنْزٍ مِنَ القِطَعِ الذَّهَبِيَّةِ ، مُخَبَّإٍ في إحْدى المَغاوِرِ ، أَمَّنَ لِكُلٍّ مِنْهُما مَبْلَغَ سِتَّةِ آلافِ دولارٍ أَوْدَعاها عِنْدَ صَديقِهِما القاضي ثاتْشِر الّذي تَكَفَّلَ بِاسْتِثْمارِها وحِفْظِها لَهُما .

وَجَدَ هاك نَمَطَ الحَياةِ عِنْدَ السَّيِّدَةِ دوغلاس مُمِلًّا وثَقيلًا ، إذْ كانَتْ تِلْكَ الأَرْمَلَةُ وشَقيقَتُها الآنِسَةُ واتسون تَسْعَيانِ - جاهِدَتَيْنِ - إلى تَهْذيبِ هاك وتَعْويدِهِ عَلى مَبادِئِ التَّصَرُّفِ والسُّلوكِ ، حَتّى إنَّهُ يَئِسَ يَوْمًا ، وهَرَبَ مِنَ البَيْتِ . لٰكِنَّ توم سُوير أَقْنَعَهُ بِالعَوْدَةِ ، فَعادَ لِيَتَحَمَّلَ - عَلى مَضَضٍ - جَوَّ الرَّسْمِيّاتِ والتَّصَرُّفاتِ المَسْلَكِيَّةِ المُمِلَّةِ المَفْروضَةِ عَلَيْهِ . كانَ يَجِدُ ثِيابَهُ الجَديدَةَ غَيْرَ مُريحَةٍ ، وجَرَسَ إعْلانِ مَوْعِدِ





الطَّعامِ سَخيفًا ، وعَدَمَ بَدْءِ الأَكْلِ قَبْلَ تِلاوَةِ صَلاةِ الشُّكْرِ شَيْئًا مُزْعِجًا . وكانَ يَمَلُّ الاسْتِماعَ إلى المَواعِظِ الّتي تُنْذِرُهُ بِأَنَّهُ سَيَكْتَوي بِنارِ جَهَنَّمَ إنْ هُوَ أَساءَ التَّصَرُّفَ وخالَفَ التَّعاليمَ .

وحَتّى عِنْدَما كانَ يَخْتَلي بِنَفْسِهِ في غُرْفَةِ النَّوْمِ لَيْلًا ، بَعيدًا عَنْ مُراقَبَةِ السَّيِّدَتَيْنِ الفاضِلَتَيْنِ ، كانَ يُحِسُّ بِالوَحْدَةِ والكَآبَةِ . كانَ يَنْظُرُ مِنَ النّافِذَةِ ، فَيَرى النُّجومَ في السَّماءِ ، ويَسْمَعُ صَوْتَ الرِّيحِ تَتَلاعَبُ بِأَوْراقِ الشَّجَرِ وأَبْواقَ السُّفُنِ البُخارِيَّةِ تَعْبُرُ النَّهْرَ . كانَتْ هٰذِهِ كُلُّها رُموزًا لِلحُرِّيَّةِ الّتي يَنْشُدُ ولِحَياةِ المُغامَراتِ الّتي يَتَمَنّى . لِذٰلِكَ كانَ يُسَرُّ عِنْدَما يَسْمَعُ ، في بَعْضِ اللَّيالي ، صَوْتَ مُواءٍ خَفيفًا تَحْتَ نافِذَتِهِ . كانَ هٰذا الصَّوْتُ يَعْني أَنَّ توم يَنْتَظِرُهُ في الحَديقَةِ ، فَيَهُبُّ هاك فَوْرًا ، ويُطْفِئُ الشَّمْعَةَ في غُرْفَتِهِ ، ويَنْسَلُّ مِنَ النّافِذَةِ ويَنْزِلُ على عَمودِ مانِعَةِ الصَّواعِقِ لِيَلْتَقِيَ بِتوم . كانَ الصَّديقانِ يَذْهَبانِ مَعًا إلى « المَقَرِّ السِّرِّيِّ » في كَهْفٍ يَبْعُدُ حَوالَى كيلومِتْرَيْنِ أَوْ

ثَلاثَةٍ عَلى ضَفَّةِ النَّهْرِ . هُناكَ تَأَسَّسَتْ « عِصابَةُ توم سُوير » الّتي تَعاهَدَ أَفْرادُها عَلى الحِفاظِ عَلى سِرِّيَّتِها والتَّعاوُنِ في أَعْمالِ « السَّرِقَةِ والإجْرامِ » ، عَلى أَنْ تَكونَ غَنائِمُهُمْ مِنَ العَرَباتِ وقَوافِلِ المُسافِرينَ .

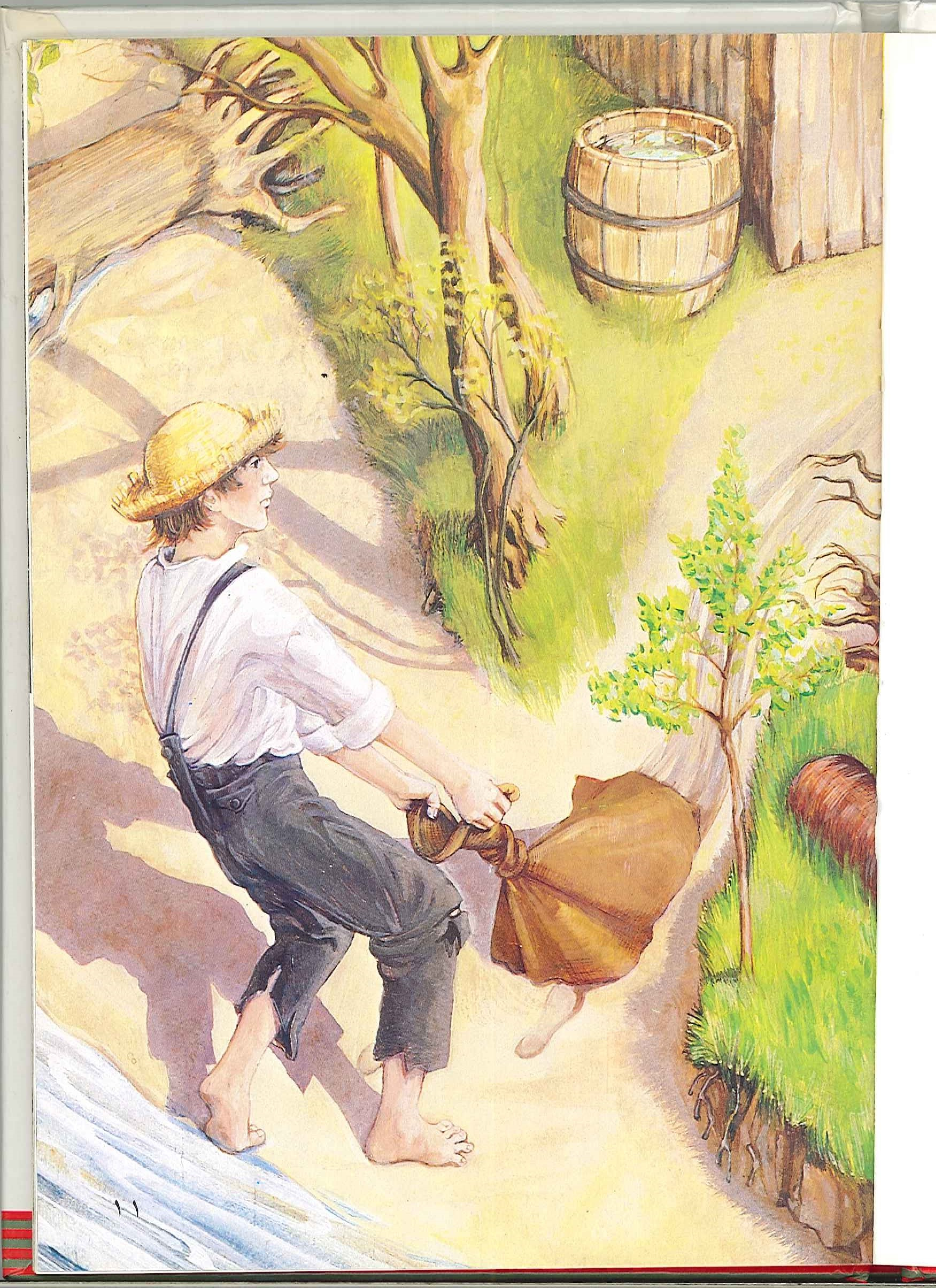
أَخْبَرَ توم أَفْرادَ العِصابَةِ ، في إحْدى اللَّيالي ، أَنَّهُ قَدْ خَطَّطَ لِلقِيامِ بِعَمَلِيَّةٍ « كَبيرَةٍ » ، تَقْضي بِإقامَةِ كَمينٍ لِمَجْموعَةٍ مِنَ التُّجّارِ الإسْبانِ والأَثْرِياءِ الشَّرْقِيّينَ سَيَعْبُرونَ الوادِيَ في قافِلَةٍ كَبيرَةٍ مِنَ الفِيَلَةِ ومِنْ سِتِّمِئَةِ جَمَلٍ كُلُّها مُحَمَّلَةٌ بِالماسِ والجَواهِرِ . وعَصْرَ اليَوْمِ التّالي كَمَنَ أَفْرادُ العِصابَةِ في مَواقِعِهِمْ مُسَلَّحينَ بِالسُّيوفِ الخَشَبِيَّةِ والعِصِيِّ والهِراواتِ . ولٰكِنْ ، بَدَلًا مِنْ قافِلَةِ التُّجّارِ والأَثْرِياءِ ، رَأَوْا مَجْموعَةً مِنْ أَوْلادِ المَدْرَسَةِ في نُزْهَةٍ مَعَ بَعْضِ المُعَلِّماتِ . ولَمّا أَعْرَبَ أَفْرادُ العِصابَةِ عَنْ خَيْبَةِ أَمَلِهِمْ قالَ توم إنَّ ساحِرًا شِرِّيرًا قَدْ حَرَّكَ عَصاهُ فَتَحَوَّلَ التُّجّارُ إلى تَلاميذَ .

مَعَ أَنَّ هاك ، كانَ يُشارِكُ ، مِنْ حينٍ لِآخَرَ ، في مِثْلِ هٰذِهِ المُغامَراتِ ، فَإِنَّهُ ظَلَّ ، خِلالَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، يَتَحَمَّلُ رَتابَةَ الحَياةِ المَدْرَسِيَّةِ وَإِزْعاجَ قُيودِ حُسْنِ التَّصَرُّفِ . تَعَلَّمَ عَلى يَدِ الآنِسَةِ واتسون مَبادِئَ القِراءَةِ ، وَأَلَمَّ بِشَيْءٍ مِنْ أُصولِ الكِتابَةِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَجِدُ صُعوبَةً في الحِسابِ . وَقَدْ سَعى ، لِيُؤْنِسَ وَحْدَتَهُ ، إِلى كَسْبِ صَداقَةِ جيم ، وَهُوَ عَبْدٌ زِنْجِيٌّ لَدى الآنِسَةِ واتسون . وَوَجَدَ أَنَّ هٰذِهِ الصَّداقَةَ تُبْعِدُ عَنْهُ وَعَنْ جيم الوَحْشَةَ ، مَعَ أَنَّ المُجْتَمَعَ لَمْ يَكُنْ لِيُرَحِّبَ بِمِثْلِ هٰذِهِ الصَّداقَةِ بَيْنَ البيضِ وَالزُّنوجِ .

ظَهَرَ والِدُ هاك يَوْمًا بِشَكْلٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعٍ . كانَ رَجُلًا بَغيضًا ، عاطِلًا عَنِ العَمَلِ ، بَذيءَ اللِّسانِ ، يَكادُ لا يُفيقُ مِنْ سُكْرِهِ . وَقَدْ أَعْرَبَ عَنْ رَفْضِهِ تَعْليمَ ابْنِهِ وَتَهْذيبَهُ ، وَصَبَّ غَضَبَهُ عَلى السَّيِّدَةِ دوغلاس مُعْتَبِرًا إِيّاها سَبَبًا في إِفْسادِ ابْنِهِ . اِسْتَنْجَدَتِ السَّيِّدَةُ دوغلاس بِشَقيقَتِها وَبِالقاضي ، وَطَرَدَتْهُ . فَما كانَ مِنْهُ إِلّا أَنْ رَدَّ عَلى ذٰلِكَ بِخَطْفِ ابْنِهِ هاك ، وَأَخْذِهِ – عَبْرَ النَّهْرِ – إِلى وِلايَةِ إِلِنْوي . وَقَدْ حَبَسَهُ هُناكَ في كوخٍ وَسَطَ غابَةٍ ، وَقامَ بِحِراسَتِهِ ، مُسَلَّحًا بِبُنْدُقِيَّةٍ ، لِيَمْنَعَ هُروبَهُ أَوْ عَوْدَتَهُ .

فوجِئَ هاك بِأَنَّهُ قَدْ أَحَبَّ الحَياةَ هُناكَ ، إِذْ كانَ خالِيَ الهَمِّ ، يَقْضي يَوْمَهُ في راحَةٍ تامَّةٍ ، يُدَخِّنُ عَلى هَواهُ وَيَصْطادُ السَّمَكَ مَتى يَشاءُ ، بَعيدًا عَنْ عَذابِ الدَّرْسِ وَقَسْوَةِ قَواعِدِ السُّلوكِ وَالآدابِ . مُشْكِلَتُهُ الوَحيدَةُ هِيَ أَنَّ أَباهُ السِّكّيرَ كانَ يَضْرِبُهُ بِوَحْشِيَّةٍ ، وَيَحْبِسُهُ أَحْيانًا داخِلَ الكوخِ عِدَّةَ أَيّامٍ مُتَوالِيَةٍ ، عِنْدَ غِيابِهِ . لِذٰلِكَ قَرَّرَ





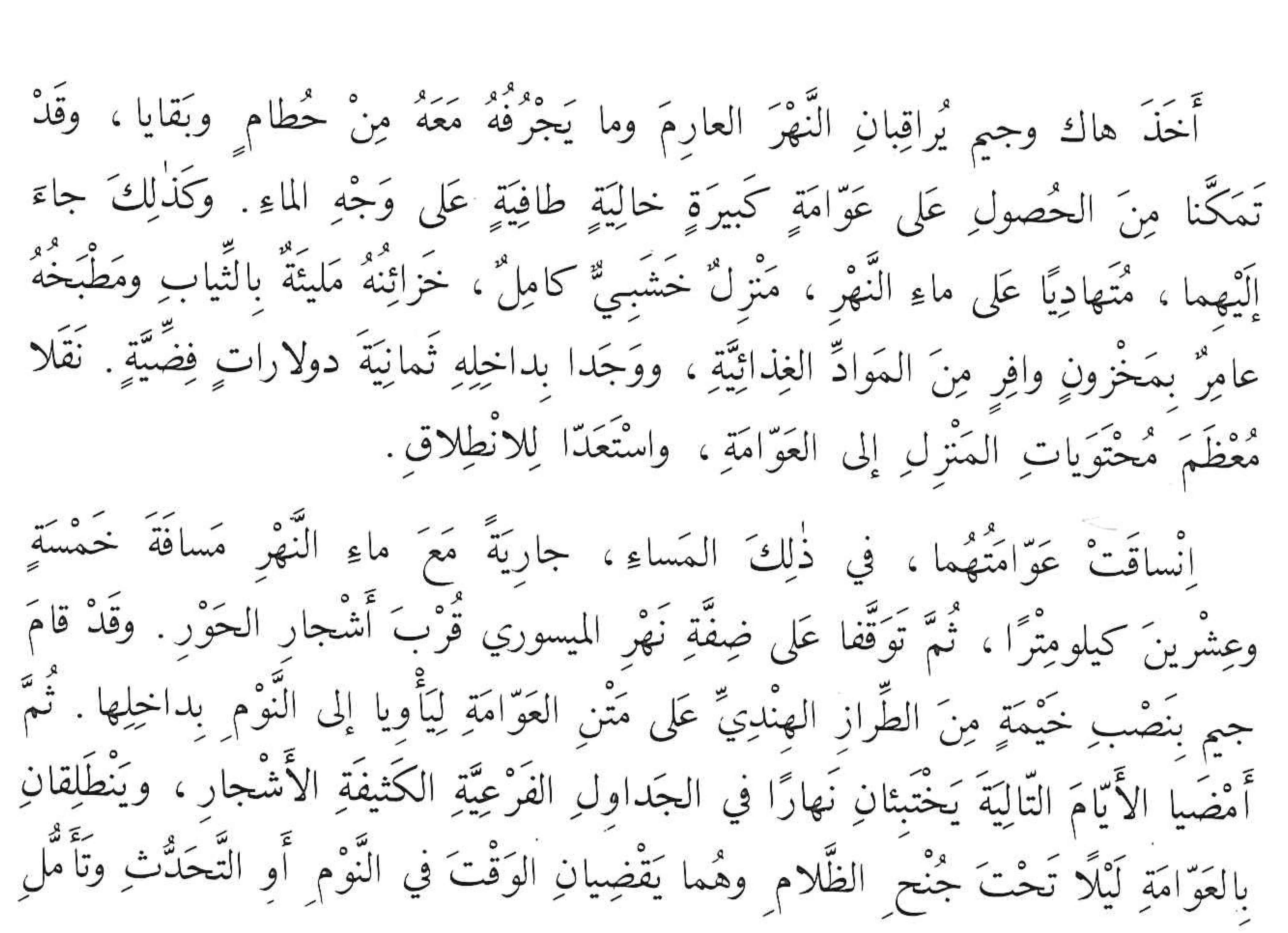
الهَرَبَ ، فَأَخَذَ يَعْمَلُ لَيْلَ نَهارَ على حَفْرِ ثُغْرَةٍ في الجِدارِ الخَشَبِيِّ لِلْكوخِ بِواسِطَةِ مِنْشارٍ قَديمٍ .

كانَ هاك يَعْلَمُ أَنَّ ماءَ النَّهْرِ ، في هٰذا الوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ ، أَيْ في شَهْرِ حَزيرانَ (يونيو) ، يَكونُ مُرْتَفِعًا ومُتَدَفِّقًا بِسُرْعَةٍ ، حامِلًا مَعَهُ كُلَّ أَنْواعِ الحُطامِ والأَخْشابِ ، وحَتّى إِنَّهُ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَحْمِلَ أَحْيانًا زَوارِقَ صَغيرَةً أَوْ عَوّاماتٍ . وقَدْ تَمَكَّنَ هاك بِالفِعْلِ مِنَ الحُصولِ على زَوْرَقٍ مِنْها وخَبَّأَهُ لِيَسْتَعْمِلَهُ عِنْدَما يَحينُ الوَقْتُ . لِذٰلِكَ انْتَهَزَ فُرْصَةَ ذَهابِ والِدِهِ ، يَوْمًا ، إلى المَدينَةِ ، فَزَحَفَ عَبْرَ الثُّقْبِ الّذي أَحْدَثَهُ ، ومَلأَ الزَّوْرَقَ بِالزّادِ . ثُمَّ فَكَّرَ بِخِدْعَةٍ تُبْعِدُ عَنْهُ خَطَرَ المُلاحَقَةِ . فَاصْطادَ ثَوْرًا بَرِّيًّا ، ولَطَّخَ بِدَمِهِ جِدارَ الكوخِ ورَشَّهُ على الأَرْضِ حَوْلَهُ ، لِيوحِيَ بِأَنَّ مَعْرَكَةً حامِيَةً قَدْ دارَتْ هُناكَ . بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَضَعَ بِضْعَةَ أَحْجارٍ كَبيرَةٍ في كيسٍ مَعَ بَقايا الثَّوْرِ ، وجَرَّ الكيسَ على الأَرْضِ بَيْنَ الشُّجَيْراتِ نَحْوَ النَّهْرِ ، ورَماهُ في الماءِ ، حَتّى يُظَنَّ أَنَّهُ قُتِلَ وأَنَّ جُثَّتَهُ قَدْ جُرَّتْ وأُلْقِيَتْ في النَّهْرِ . وسارَ بِزَوْرَقِهِ في مَجْرى ماءِ النَّهْرِ مُتَوَجِّهًا إلى جَزيرَةِ جاكْسون .

أَمْضى ثَلاثَةَ أَيّامٍ في جَزيرَةِ جاكْسون يَمْرَحُ ويَلْهو مُتَمَتِّعًا بِحُرِّيَّتِهِ . وقَدْ فوجِئَ ، وهُوَ يَمْشي على غَيْرِ هُدًى قُرْبَ ضَفَّةِ النَّهْرِ ، بِرُؤْيَةِ صَديقِهِ القَديمِ جيم ، العَبْدِ الزِّنْجِيِّ لَدى الآنِسَةِ واتسون . أَمّا جيم فَقَدْ صاحَ مُرْتَعِدًا إِذْ ظَنَّ أَنَّهُ رَأى شَبَحًا ، لِأَنَّهُ كانَ قَدْ سَمِعَ بِالأَخْبارِ الّتي تَناقَلَها النّاسُ حَوْلَ مَقْتَلِ هاك وغَرَقِهِ . قامَ هاك بِتَهْدِئَةِ رَوْعِ جيم وأَخْبَرَهُ بِالحَقيقَةِ . وكانَ جيم قَدْ هَرَبَ بَعْدَ أَنْ سَمِعَ أَنَّ الآنِسَةَ واتسون تَنْوي بَيْعَهُ ؛ لِذٰلِكَ كانَ يُعْتَبَرُ عَبْدًا فارًّا . ولٰكِنَّ هاك طَمْأَنَهُ بِأَنَّهُ لَنْ يُخْبِرَ أَحَدًا بِذٰلِكَ .

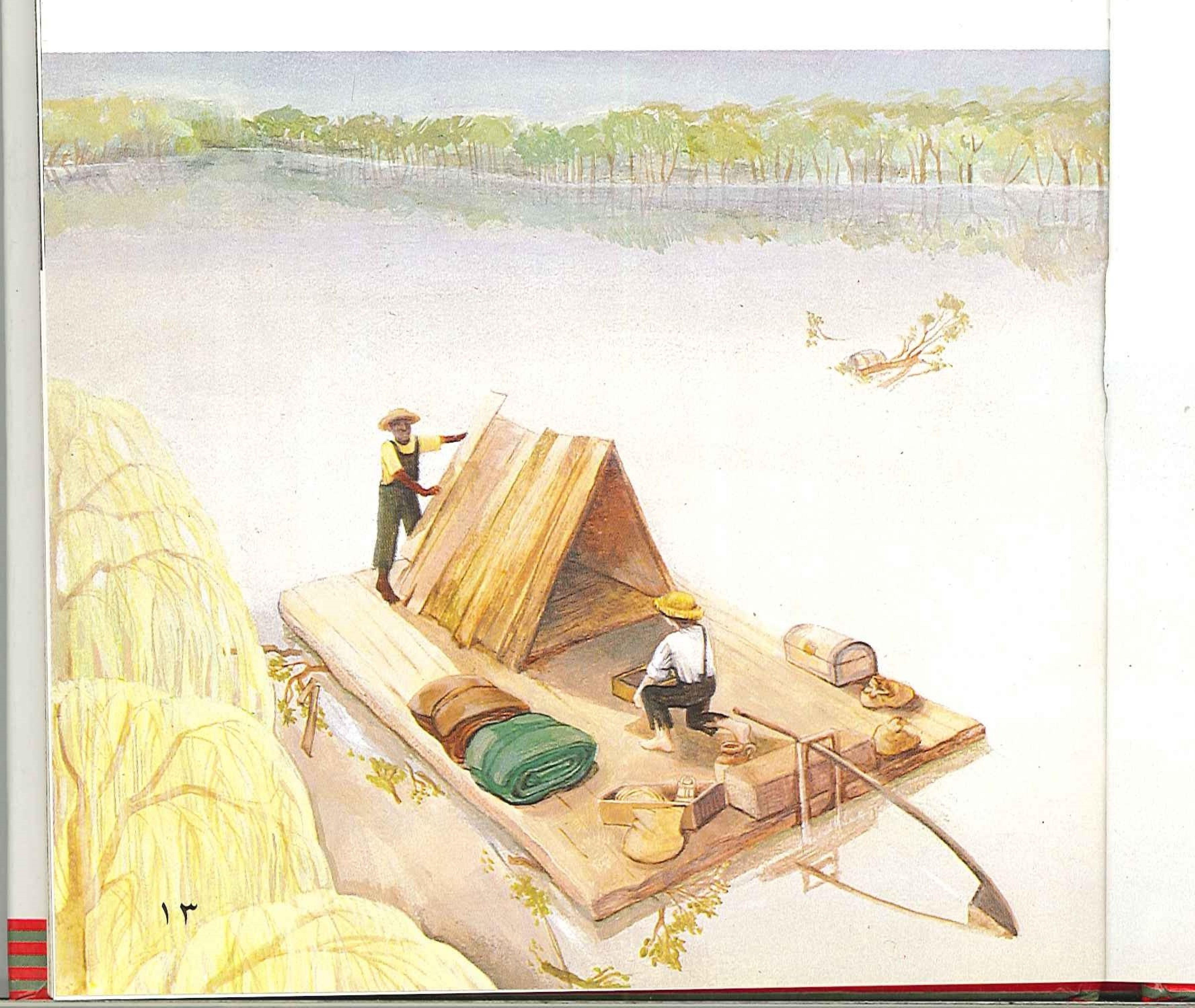
أَخذَ هاك وجيم يُراقِبانِ النَّهْرَ العارِمَ وما يَجْرُفُهُ مَعَهُ مِنْ حُطامٍ وبَقايا ، وقَدْ تَمكَّنا مِنَ الحُصولِ عَلى عَوّامَةٍ كَبيرَةٍ خالِيَةٍ طافِيَةٍ عَلى وَجْهِ الماءِ. وكَذٰلِكَ جاءَ إِلَيْهِما ، مُتَهادِيًا عَلى ماءِ النَّهْرِ ، مَنْزِلٌ خَشَبِيٌّ كامِلٌ ، خَزائِنُهُ مَليئَةٌ بِالثِّيابِ ومَطْبَخُهُ عامِرٌ بِمَخْزونٍ وافِرٍ مِنَ المَوادِّ الغِذائِيَّةِ ، ووَجَدا بِداخِلِهِ ثَمانِيَةَ دولاراتٍ فِضِّيَّةٍ. نَقَلا مُعْظَمَ مُحْتَوَياتِ المَنْزِلِ إِلى العَوّامَةِ ، واسْتَعَدّا لِلانْطِلاقِ.

اِنْساقَتْ عَوّامَتُهُما ، في ذٰلِكَ المَساءِ ، جارِيَةً مَعَ ماءِ النَّهْرِ مَسافَةَ خَمْسَةٍ وعِشْرينَ كيلومِتْرًا ، ثُمَّ تَوَقَّفا عَلى ضِفَّةِ نَهْرِ الميسوري قُرْبَ أَشْجارِ الحَوْرِ. وقَدْ قامَ جيم بِنَصْبِ خَيْمَةٍ مِنَ الطِّرازِ الهِنْدِيِّ عَلى مَتْنِ العَوّامَةِ لِيَأْوِيا إِلى النَّوْمِ بِداخِلِها. ثُمَّ أَمْضَيا الأَيّامَ التّالِيَةَ يَخْتَبِئانِ نَهارًا في الجَداوِلِ الفَرْعِيَّةِ الكَثيفَةِ الأَشْجارِ ، ويَنْطَلِقانِ بِالعَوّامَةِ لَيْلًا تَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ وهُما يَقْضِيانِ الوَقْتَ في النَّوْمِ أَوِ التَّحَدُّثِ وتَأَمُّلِ



النُّجومِ أَوِ اصْطِيادِ السَّمَكِ. وقَدْ شَغَلا نَفْسَيْهِما ، لِبَعْضِ الوَقْتِ ، في تَرْتيبِ ما حَصَلا عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ المَنْزِلِ الطّافي ، فَفَرَزا الثِّيابَ المُخْتَلِفَةَ والأَحْذِيَةَ والقُبَّعاتِ والبَطّانِيّاتِ وأَنْواعَ الطَّعامِ والشَّرابِ ولَفائِفَ السِّيكارِ. وقَدْ أَصابَ جيم الذُّهولُ مُعْتَبِرًا أَنَّ مَنْ يَمْلِكُ كُلَّ هٰذِهِ الأَشْياءِ يَعيشُ حَياةَ بَذْخٍ وتَرَفٍ.

بَعْدَ بِضْعِ لَيالٍ ، مَرّا قُرْبَ مَدينَةِ سانْت لُويس ، فَبُهِرا بِأَنْوارِها السّاطِعَةِ ، ولٰكِنَّهُما قَرَّرا عَدَمَ التَّوَقُّفِ وإِكْمالَ الرِّحْلَةِ مَسافَةَ مِئَتَيْنِ وأَرْبَعينَ كيلومِتْرًا إِلى حَيْثُ يَلْتَقي نَهْرا أوهايو والمِسيسِپي ، عَلى أَنْ يَبيعا هُناكَ العَوّامَةَ وكُلَّ مُمْتَلَكاتِهِما ، ويَسْتَقِلّا





سَفينَةٌ بُخارِيَّةٌ – عَبْرَ نَهْرِ أوهايو – إلى وِلاياتِ كِنْتاكي وإنديانا وأوهايو، حَيْثُ يَكونُ جيم حُرًّا ولا خَطَرَ مِنِ اعْتِقالِهِ. كانَ جيم يَتَطَلَّعُ بِشَوْقٍ إلى الحُصولِ على حُرِّيَّتِهِ في تِلْكَ الوِلاياتِ الَّتي أَبْطَلَتِ العَمَلَ بِنِظامِ الرَّقيقِ، وعاهَدَ نَفْسَهُ على العَمَلِ بِكَدٍّ لِيَجْنِيَ بَعْضَ المالِ لِشِراءِ حُرِّيَّةِ زَوْجَتِهِ وأَوْلادِهِ.

كانَ جيم داخِلَ الخَيْمَةِ، وقَدْ قَرَّرَ هاك التَّوَجُّهَ نَحْوَ ضِفَّةِ النَّهْرِ لِلتَّوَقُّفِ قَليلاً لِلرّاحَةِ. ولٰكِنَّهُ، قَبْلَ وُصولِهِ إلى الضِّفَّةِ، رَأى رَجُلَيْنِ مُسَلَّحَيْنِ في زَوْرَقٍ، يَقْتَرِبانِ مِنْهُ ويُحَيِّيانِهِ. أَخْبَراهُ أَنَّهُما يَبْحَثانِ عَنْ بَعْضِ العَبيدِ الفارّينَ، وسَأَلاهُ إذا كانَ مَعَهُ أَحَدٌ على ظَهْرِ العَوّامَةِ. فَكَّرَ هاك بِسُرْعَةٍ، وأَخْبَرَهُما أَنْ لَيْسَ مَعَهُ، داخِلَ

الخَيْمَةِ، سِوى والِدِهِ العَجوزِ العَليلِ الَّذي يُعاني مِنْ مَرَضِ الجُدَرِيِّ. لِذٰلِكَ قَرَّرَ الرَّجُلانِ عَدَمَ تَفْتيشِ العَوّامَةِ، وأَشْفَقا على هاك ووالِدِهِ المِسْكينِ فَنَقَداهُ أَرْبَعينَ دولارًا لِمُساعَدَتِهِ في مِحْنَتِهِ.

في ذٰلِكَ المَساءِ، ابْتُلِيَ جيم وهاك بِمُصيبَةٍ، إذِ اصْطَدَمَتْ بِعَوّامَتِهِما فَجْأَةً، سَفينَةٌ بُخارِيَّةٌ كَبيرَةٌ. فَأَخَذَ كُلٌّ مِنْهُما يَسْبَحُ سَعْيًا لِلخَلاصِ مِنَ الغَرَقِ. ولٰكِنَّهُما، لِهَوْلِ المُفاجَأَةِ وشِدَّةِ الظَّلامِ، أَضاعَ واحِدُهُما أَثَرَ الآخَرِ. وعِنْدَما وَصَلَ هاك إلى اليابِسَةِ قَرَّرَ البَحْثَ عَنْ جيم، وسُرْعانَ ما وَصَلَ قُرْبَ مَنْزِلٍ كَبيرٍ قَديمِ الطِّرازِ.

ما إنِ اقْتَرَبَ هاك مِنَ المَنْزِلِ حَتّى سَمِعَ صَوْتَ امْرَأَةٍ تَصيحُ: «مَنْ هُناكَ؟»

كانَ هاك حاضِرَ الذِّهْنِ، فَأَجابَ: «أنا جورج جاكْسون.»

- قُلْ لي يا جورج جاكْسون، هَلْ تَعْرِفُ آلَ شيپِرْدْسون؟

- كَلّا، لَمْ أَسْمَعْ بِهِمْ مِنْ قَبْلُ.

- إذًا، تَقَدَّمْ ويَداكَ مَرْفوعَتانِ.

عِنْدَما فَعَلَ هاك ما أُمِرَ بِهِ رَأى أَنَّ هُناكَ أَيْضًا ثَلاثَةَ رِجالٍ يُصَوِّبونَ البَنادِقَ نَحْوَهُ. وقالَ أَحَدُهُمْ: «واضِحٌ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عائِلَةِ شيپِرْدْسون.» ثُمَّ أَمَرَتِ السَّيِّدَةُ فَتًى يُدْعى بَكّ بِإِحْضارِ ثِيابٍ جافَّةٍ لِلضَّيْفِ، وقَدَّمَتْ لَهُ وَجْبَةَ طَعامٍ شَهِيَّةً. أَخَذوا يَسْأَلونَهُ عَنْ عائِلَتِهِ ومَكانِ قُدومِهِ. وقَدْ تَذَكَّرَ هاك كَيْفَ كانَ صَديقُهُ توم سُوير يَتَصَرَّفُ في مِثْلِ هٰذِهِ المَواقِفِ، فَاخْتَلَقَ قِصَصًا لا أَساسَ لَها مِنَ الصِّحَّةِ.

كانَ رَبُّ العائِلَةِ يُدْعى الكولونيلَ غرانغرْفورد، وهُوَ رَجُلٌ جَليلٌ بَهِيُّ الطَّلْعَةِ صاحِبُ شَخْصِيَّةٍ مُمَيَّزَةٍ. أَمّا ابْنُهُ بَكّ فَكانَ في الرّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ولَهُ شَقيقانِ يَكْبُرانِهِ سِنًّا هُما بوب وتوم، وشَقيقَتانِ: شَرْلوت وهِيَ في الخامِسَةِ والعِشْرينَ، وصوفيا الّتي تَصْغُرُها قَليلًا. كانَ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرادِ العائِلَةِ عَبْدٌ زِنْجِيٌّ خاصٌّ بِهِ يَقِفُ عَلى خِدْمَتِهِ. ويَظْهَرُ أَنَّ عَداوَةً مَريرَةً كانَتْ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ جيرانِهِمْ آلِ شيپِرْدْسون. كانَ بَكّ وهاك يَوْمًا في الغابَةِ فَفوجِئا بِمُرورِ فَتًى مِنْ عائِلَةِ شيپِرْدْسون يَمُرُّ مُمْتَطِيًا صَهْوَةَ جَوادِهِ. لَمْ يُصَدِّقْ هاك عَيْنَيْهِ عِنْدَما رَأى بَكّ يَرْفَعُ بُنْدُقِيَّتَهُ ويُطْلِقُ النّارَ عَمْدًا بِاتِّجاهِ الفَتى، عازِيًا ذٰلِكَ بِكُلِّ بَساطَةٍ إلى وُجودِ العِداءِ القَديمِ بَيْنَ العائِلَتَيْنِ. وأَضافَ أَنَّ هٰذا العِداءَ يَحْصُدُ كُلَّ سَنَةٍ قَتيلَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً مِنْ أَفْرادِ العائِلَتَيْنِ. والأَغْرَبُ مِنْ ذٰلِكَ، حَدَثَ يَوْمَ الأَحَدِ في الكَنيسَةِ عِنْدَما رَأى هاك أَفْرادَ العائِلَتَيْنِ يَجْلِسونَ بِخُشوعٍ مُتَقارِبينَ، وقَدْ وَضَعَ رَبُّ كُلِّ عائِلَةٍ يَدَهُ عَلى مُسَدَّسِهِ المَوْضوعِ في حِضْنِهِ. وبَدا أَنَّهُمْ - جَميعًا - صَلّوا بِخُشوعٍ واسْتَحْسَنوا كَلامَ الكاهِنِ في عِظَتِهِ حَوْلَ الفَضيلَةِ وحُبِّ الإِنْسانِ لِأَخيهِ الإِنْسانِ والتَّسامُحِ!



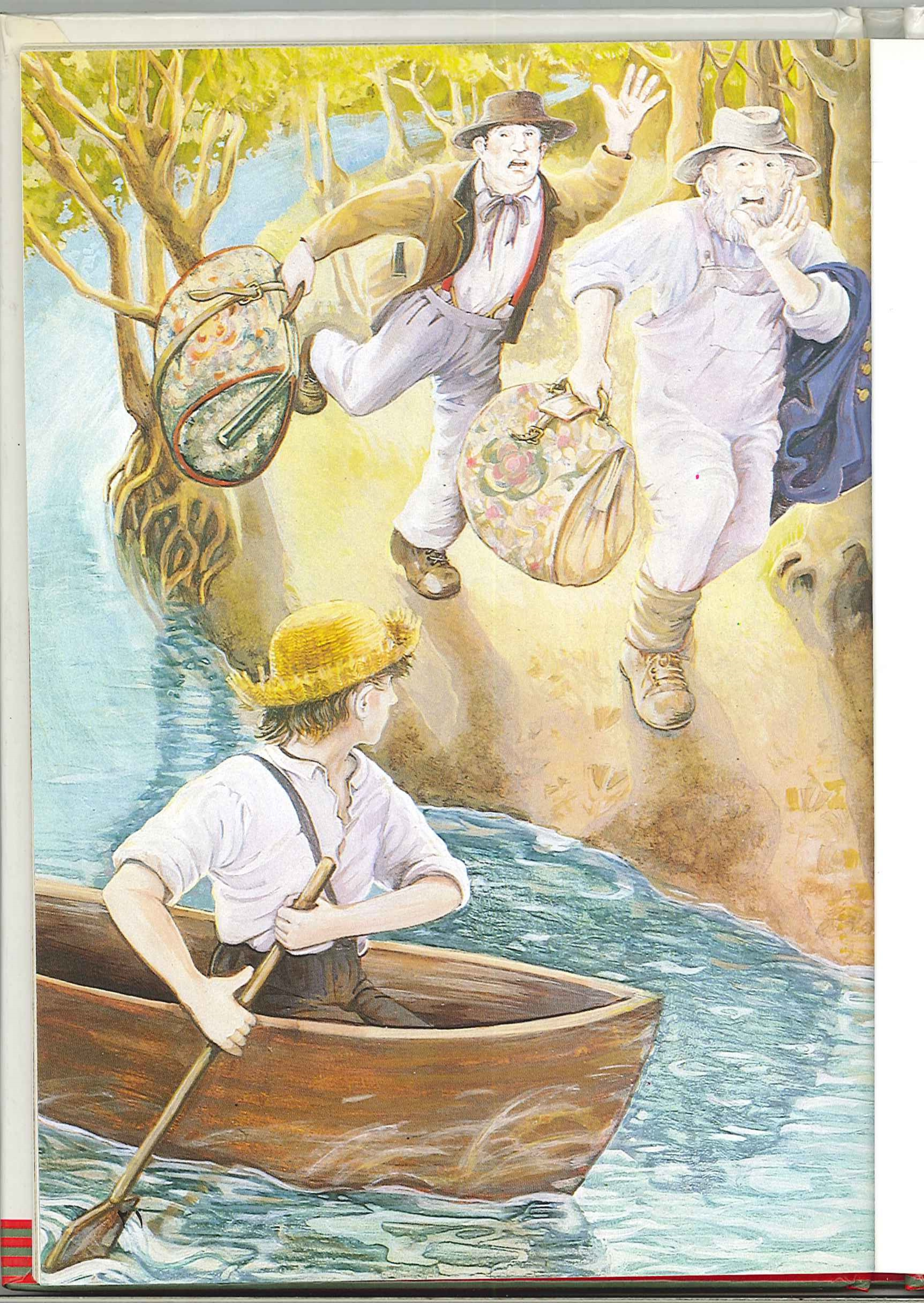


حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ شَيْءٌ أَثارَ الرُّعْبَ في نَفْسِ هاك ، فَقَدِ اكْتُشِفَ أَنَّ الآنِسَةَ صوفيا قَدْ هَرَبَتْ مَعَ أَحَدِ أَبْناءِ شيبِرْدْسون . فَانْطَلَقَ أَفْرادُ عائِلَةِ غرانغرْفورد فَوْرًا لِمُلاحَقَتِهِما . كانَ هاك في الغابَةِ مُخْتَبِئًا بَيْنَ الأَشْجارِ ، فَسَمِعَ أَصْواتَ عِياراتٍ نارِيَّةٍ ، ثُمَّ شاهَدَ بَكّ وَشَخْصًا آخَرَ يُحاوِلانِ أَنْ يَسْبَحا عَبْرَ النَّهْرِ هَرَبًا مِنْ مُطارِدِيهِما ، وَلٰكِنَّ النّارَ أُطْلِقَتْ عَلَيْهِما وَقُتِلا فَوْرًا . أَحَسَّ هاك بِالاشْمِئْزازِ مِنْ هٰذِهِ الوَحْشِيَّةِ العَمْياءِ الَّتي تَتَحَكَّمُ بِالعَلاقَةِ بَيْنَ العائِلَتَيْنِ فَقَرَّرَ أَنْ يَذْهَبَ بَعيدًا عَنْ هٰذا الجَوِّ البَغيضِ .

كانَ هاك مَحْظوظًا إِذِ الْتَقى بِصَديقِهِ جيم الَّذي كانَ قَدْ خَبَّأَ العَوّامَةَ في مَكانٍ

أَمينٍ . هَتَفا بِحَرارَةٍ وَغَمَرَتْهُما الفَرْحَةُ لِاجْتِماعِهِما مُجَدَّدًا ، وانْطَلَقا مُتَمَتِّعَيْنِ بِالحُرِّيَّةِ والسَّكينَةِ اللَّتَينِ وَفَّرَهُما النَّهْرُ العَظيمُ .

جَرَتْ عَوّامَتُهُما بِرِفْقٍ عَلى سَطْحِ الماءِ في تِلْكَ المِنْطَقَةِ المَهيبَةِ مِنَ النَّهْرِ ، حَيْثُ يَبْلُغُ عَرْضُهُ حَوالَى كيلومِتْرَيْنِ . وَأَخَذا – كَما في السّابِقِ – يُسافِرانِ لَيْلًا تَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ ، وَيَقْضِيانِ مُعْظَمَ اللَّيْلِ في صَيْدِ السَّمَكِ أَوِ الرّاحَةِ أَوْ مُراقَبَةِ النُّجومِ وَتَجاذُبِ أَطْرافِ الحَديثِ . أَمّا أَجْمَلُ المَشاهِدِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِما فَكانَتْ عِنْدَ مُرورِ إِحْدى السُّفُنِ البُخارِيَّةِ الضَّخْمَةِ ، وَكانَ يَبْهَرُهُما دولابُ الدَّفْعِ الكَبيرُ في مُؤَخَّرَتِها وَأَنْوارُها المُشِعَّةُ والشَّرَرُ المُتَطايِرُ مِنْ مِدْخَنَتِها .



في صباحِ أحَدِ الأيّامِ ترَكَ هاك العوّامَةَ، وذهَبَ في زورَقٍ صغيرٍ نحْوَ الشّاطِئِ، بَحْثًا عَنْ ثِمارِ التّوتِ البرّيِّ. رَأى رَجُلَيْنِ يرْكُضانِ نحْوَ ضِفّةِ النّهْرِ ويرْجُوانِهِ إنْقاذَ حياتِهِما. كانَ أحَدُهُما عجوزًا جاوزَ السّبْعينَ، أصْلَعَ، ذا لِحْيَةٍ بَيْضاءَ مُسْتَفيضَةٍ على جانِبَيْ وَجْهِهِ، يرْتَدي قَميصًا رَثًّا وسِرْوالًا قذِرًا. أمّا الثّاني فكانَ في الثّلاثينَ مِنْ عُمْرِهِ. وقدْ طارَدَهُما جَمْعٌ مِنْ أبْناءِ البَلْدَةِ الغاضِبينَ مُتّهِمينَ الرّجُلَيْنِ بخِداعِهِمْ وسَلْبِهِمِ المالَ. وافَقَ هاك على مُساعدَةِ الرّجُلَيْنِ، واقْترَحَ انْضِمامَهُما إلَيْهِ وإلى صَديقِهِ. كانَ الرّجُلانِ حاذِقَيْنِ ومُتعَدّدي المواهِبِ. فالشّابُّ عامِلُ طِباعَةٍ، ومُوزِّعُ أدْوِيَةٍ، ومُعلّمٌ، ومُنوِّمٌ مِغْنَطيسيٌّ، ومُمَثّلٌ مَسْرَحِيٌّ بارِعٌ. أمّا رَفيقُهُ فطَبيبٌ مُشَعْوِذٌ، وواعِظٌ ومُبَشِّرٌ دينيٌّ وعرّافٌ.

توَجّهَ الرّجُلُ الشّابُّ إلى هاك وصَديقِهِ المُنْذَهِلِ جيم بِقِصّةٍ غريبَةٍ، قائِلًا: «لَقَدْ دارَتْ بيَ الأيّامُ. إنّني، بالحقيقَةِ، مِنْ طَبَقَةِ النُّبَلاءِ وأحْمِلُ لَقَبَ دوق.»

برَزَتْ عَيْنا هاك اسْتِغْرابًا وهَتَفَ سائِلًا: «دوقٌ؟» فَأجابَ الرّجُلُ بِكُلِّ رصانَةٍ: «أجَلْ، أجَلْ. فأنا - قانونًا - دوقُ بريدجْوُوتر في إنكلترا.»

- أنتَ دوقُ بريدجْوُوتر بِنَفْسِهِ!؟

- بالطّبْعِ. وعلَيْكَ أنْ تُناديَني بِكَلِمَةِ (سيِّدي) أوْ (صاحِبِ السّعادَةِ). وعلَيْكَ أنْ تحْتَرِمَني وتَقِفَ على رِعايَتي وتَخْدِمَني.

اعْتَقَدَ جيم أنَّ مُرافَقَةَ مِثْلِ هٰذا الرّجُلِ النّبيلِ شَيْءٌ عظيمٌ. ثُمّ انْبَرى الرّجُلُ العَجوزُ لِيُقدّمَ أوْراقَ اعْتِمادِهِ، فَقالَ: «اِسْمَعْ يا بريدجْوُوتر. لَسْتَ الوحيدَ هُنا الّذي فَقَدَ مَرْكَزَهُ ولَقَبَهُ. فَأنا أيْضًا لَدَيَّ سِرٌّ. إنّني لويس السّابعَ عشَرَ ابْنُ مَلِكِ فَرَنْسا. إنَّ حالَةَ البُؤْسِ الحاليّةَ والثّيابَ الوَضيعَةَ لا تَمْحو الحَقيقَةَ، وهيَ أنّكُمْ تَقِفونَ في حَضْرَةِ الوَريثِ الشّرْعيِّ لِعَرْشِ فَرَنْسا. ومِمّا يُخَفِّفُ مُصيبَتي أنْ تنْحَنوا أمامي وتُخاطِبوني بِعِبارَةِ: صاحِبِ الجَلالَةِ.»

وهٰكَذا وَجَدَ هاك وجيم نَفْسَيْهِما في خِدْمَةِ هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ : يَنْحَنِيانِ أَمامَهُما ، ويُنادِيانِ الدّوقَ «سَيِّدي» أَوْ «يا صاحِبَ السَّعادَةِ» ، والرَّجُلَ الآخَرَ «صاحِبَ الجَلالَةِ» . كانَ هاك يَعْلَمُ أَنَّ هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ الطّارِئَيْنِ مُحْتالانِ مُخادِعانِ ، ولٰكِنَّهُ أَرادَ أَنْ يُجارِيَهُما حُبًّا بِالتَّسْلِيَةِ . أَمّا جيم المِسْكينُ فكانَ مُصَدِّقًا كُلَّ ما قالاهُ .

اِنْطَلَقوا جَميعًا في النَّهْرِ عِنْدَ الغَسَقِ ، وقَدْ حَدَثَتْ عاصِفَةٌ قَوِيَّةٌ ، انْهَمَرَتْ خِلالَها الأَمْطارُ غَزيرَةً ، مَصْحوبَةً بِالبَرْقِ والرَّعْدِ . وسَرْعانَ ما احْتَلَّ الدّوقُ والمَلِكُ الخَيْمَةَ ، فَاحْتَمَيا بِداخِلِها مِنَ البَرْدِ والمَطَرِ لِأَنَّ رُتْبَتَهُما تُؤَهِّلُهُما لِذٰلِكَ ! أَمّا هاك وجيم فَقَدْ كانا مِنْ طَبَقَةِ العامَّةِ ، ولِذٰلِكَ ناما عَلى العَوّامَةِ في العَراءِ . بَعْدَ انْبِلاجِ الفَجْرِ اتَّجَهوا إلى خَليجٍ صَغيرٍ لِلاخْتِباءِ . وتَناوَلوا هُناكَ الفَطورَ ، وبَدَأوا يَتَداوَلونَ في خُطَطٍ لِلعَمَلِ . أَخْرَجَ الدّوقُ مِنْ خُرْجِهِ مَجْموعَةً كَبيرَةً مِنَ الإعْلاناتِ المَكْتوبَةِ بِخَطِّ اليَدِ : أُعْلِنَ عَنْهُ في أَحَدِها أَنَّهُ الدُّكْتورُ الفَرَنْسِيُّ الشَّهيرُ أَرْمان دو مونتَلْبان ، وأَنَّهُ سَيُلْقي مُحاضَرَةً حَوْلَ فِراسَةِ الدِّماغِ لِقاءَ رَسْمِ حُضورٍ مِقْدارُهُ عَشَرَةُ سِنْتاتٍ .

وجاءَ في إعْلانٍ آخَرَ أَنَّهُ المُمَثِّلُ المَسْرَحِيُّ الشِّكْسْبيرِيُّ العَظيمُ غاريك الأَصْغَرُ مِنْ أَشْهَرِ مَسارِحِ لَنْدن . وأَشادَ ثالِثٌ بِبَراعَتِهِ في التَّنَبُّؤِ – بِواسِطَةِ العَصا – بِأَمْكِنَةِ وُجودِ الماءِ والذَّهَبِ ، وبِعَظَمَتِهِ في التَّحْصينِ ضِدَّ الرُّقى والتَّعاويذِ .

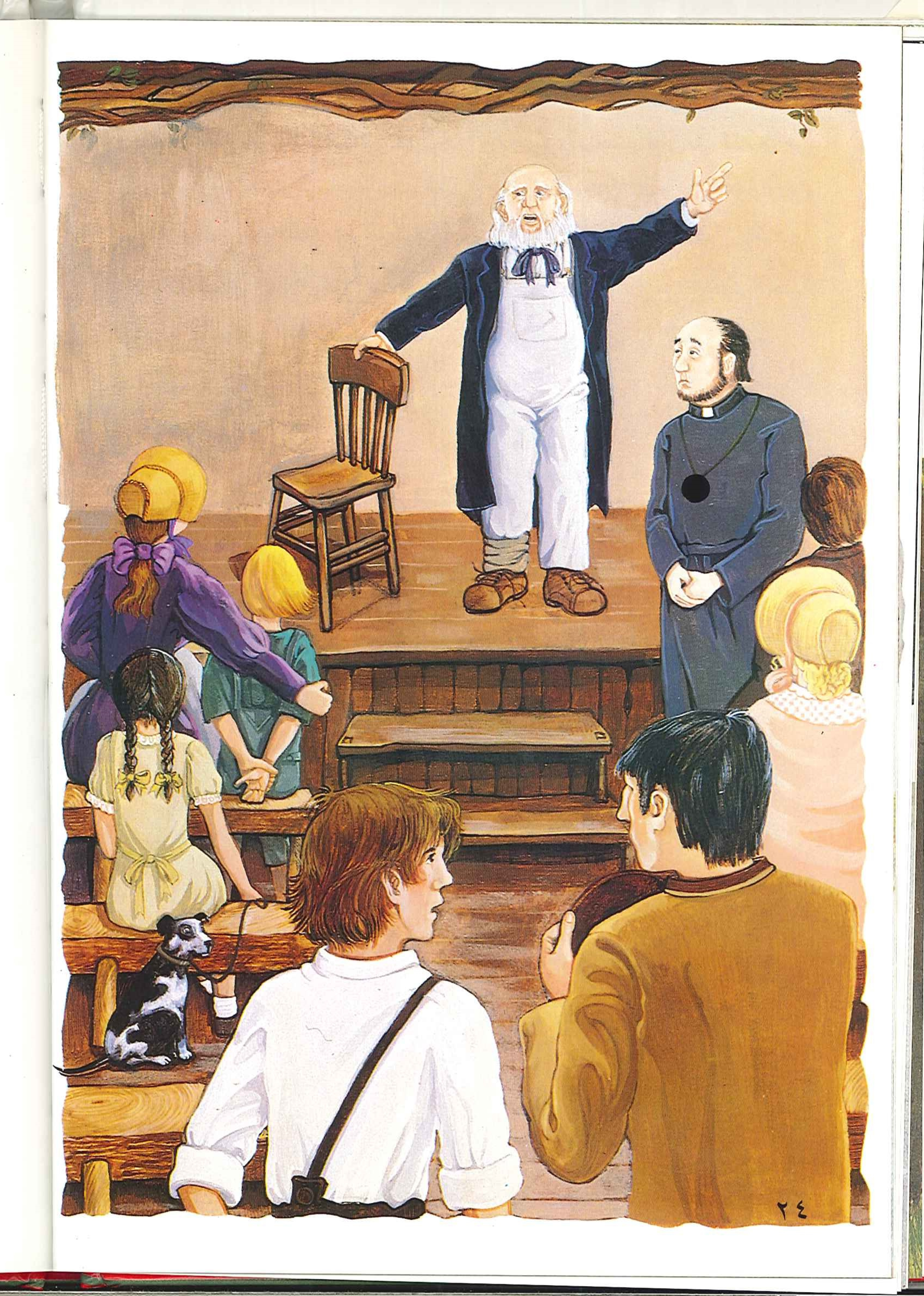
مالَ الدّوقُ نَحْوَ رَفيقِهِ وسَأَلَهُ : «يا صاحِبَ الجَلالَةِ ، هَلِ اعْتَلَيْتُمْ خَشَبَةَ المَسْرَحِ سابِقًا ؟»

فَأَجابَ المَلِكُ : «كَلّا» .

– إذًا لَقَدْ آنَ الأَوانُ ، يا صاحِبَ الجَلالَةِ . عِنْدَما نَصِلُ إلى أَوَّلِ بَلْدَةٍ ، سَوْفَ نَسْتَأْجِرُ قاعَةً ونَعْرِضُ مَشْهَدَ المُبارَزَةِ بِالسَّيْفِ في مَسْرَحِيَّةِ «ريتْشارْد الثّالِث» ومَشْهَدَ الشُّرْفَةِ في «روميو وجولييت» ، فَما رَأْيُكُمْ ؟»

أَجابَ المَلِكُ مُتَحَمِّسًا : «إنَّنا نَمْنَحُكَ مُوافَقَتَنا .. يُمْكِنُكَ الاعْتِمادُ عَلَيَّ حينَ يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ بِرِبْحِ بَعْضِ المالِ .»





اِنْهَمَكَ الدّوقُ قَبْلَ الظُّهْرِ في إعْدادِ بَعْضِ المَلابِسِ الخاصَّةِ بِالمَسْرَحِ وتَدْريبِ المَلِكِ عَلى دَوْرِهِ. وبَعْدَ الغَداءِ، قَرَّرَ الدّوقُ والمَلِكُ وهاك التَّوَجُّهَ لِاسْتِطْلاعِ البَلْدَةِ القَريبَةِ مِنَ النَّهْرِ. ولَدى وُصولِهِمِ البَلْدَةَ عَلِموا أَنَّ أَهْلَها جَميعًا يَعْقِدونَ اجْتِماعًا. وفيما هُمْ يَسيرونَ مَرّوا بِمَطْبَعَةٍ، فَدَخَلَها الدّوقُ عَلى أَنْ يُوافِيَ رَفيقَيْهِ لاحِقًا.

وَصَلَ المَلِكُ وهاك إلى مَكانٍ فَسيحٍ تُظَلِّلُهُ خَيْمَةٌ كَبيرَةٌ، احْتَشَدَ تَحْتَها حَوالَى أَلْفِ شَخْصٍ. كانَتْ تُحيطُ بِالخَيْمَةِ جِيادٌ وعَرَباتٌ مُتَوَقِّفَةٌ بَيْنَ الأَشْجارِ، مِمّا جَعَلَ المَكانَ يَبْدو وكَأَنَّهُ مَهْرَجانٌ، وبِخاصَّةٍ مَعَ وُجودِ بائِعي اللّيموناضَةِ والبِطّيخِ والذُّرَةِ والكَعْكِ والحَلْوى. كانَ، عَلى مِنَصَّةٍ عالِيَةٍ تَحْتَ الخَيْمَةِ، مُبَشِّرٌ طَلْقُ اللِّسانِ، يَعِظُ النّاسَ الّذينَ تَحَلَّقوا حَوْلَهُ مَأْخوذينَ بِكَلامِهِ. وَجَدَ المَلِكُ أَنَّ هٰذِهِ فُرْصَةٌ لا تُعَوَّضُ، فَاعْتَلى المِنَصَّةَ، بِكُلِّ جُرْأَةٍ وثِقَةٍ، واسْتَأْذَنَ المُبَشِّرَ لِيُضيفَ شَهادَتَهُ الشَّخْصِيَّةَ تَأْييدًا لِما كانَ يَحُضُّ عَلَيْهِ مِنَ الإيمانِ والتَّقْوى. وبَعْدَ أَنْ سادَ الجَمْعَ الصَّمْتُ، شَرَعَ يُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ كانَ قُرْصانًا شِرّيرًا يَسْلُبُ السُّفُنَ في المُحيطِ الهِنْدِيِّ، عَلى مَدى ثَلاثينَ عامًا. وأَضافَ: «أَمْسِ بِالذّاتِ سُرِقَتْ كُلُّ أَمْوالي، وأَفَقْتُ عَلى الحَقيقَةِ وأَيْقَنْتُ أَنَّ كُلَّ أَعْمالي السّابِقَةِ كانَتْ ضَلالًا. إِنَّني الآنَ سَعيدٌ جِدًّا لِأَنَّني اهْتَدَيْتُ إلى الإيمانِ الصَّحيحِ. وسَيَكونُ هَدَفي الأَوْحَدُ في حَياتي إِرْشادَ غَيْري مِنَ الضّالّينَ إلى طَريقِ الحَقِّ.» ثُمَّ بَدَأَ يَبْكي قائِلًا: «إِنَّها دُموعُ الفَرَحِ!» وقَدْ تَأَثَّرَ النّاسُ بِحَديثِهِ حَتّى إِنَّ بَعْضَهُمْ بَكى مَعَهُ.

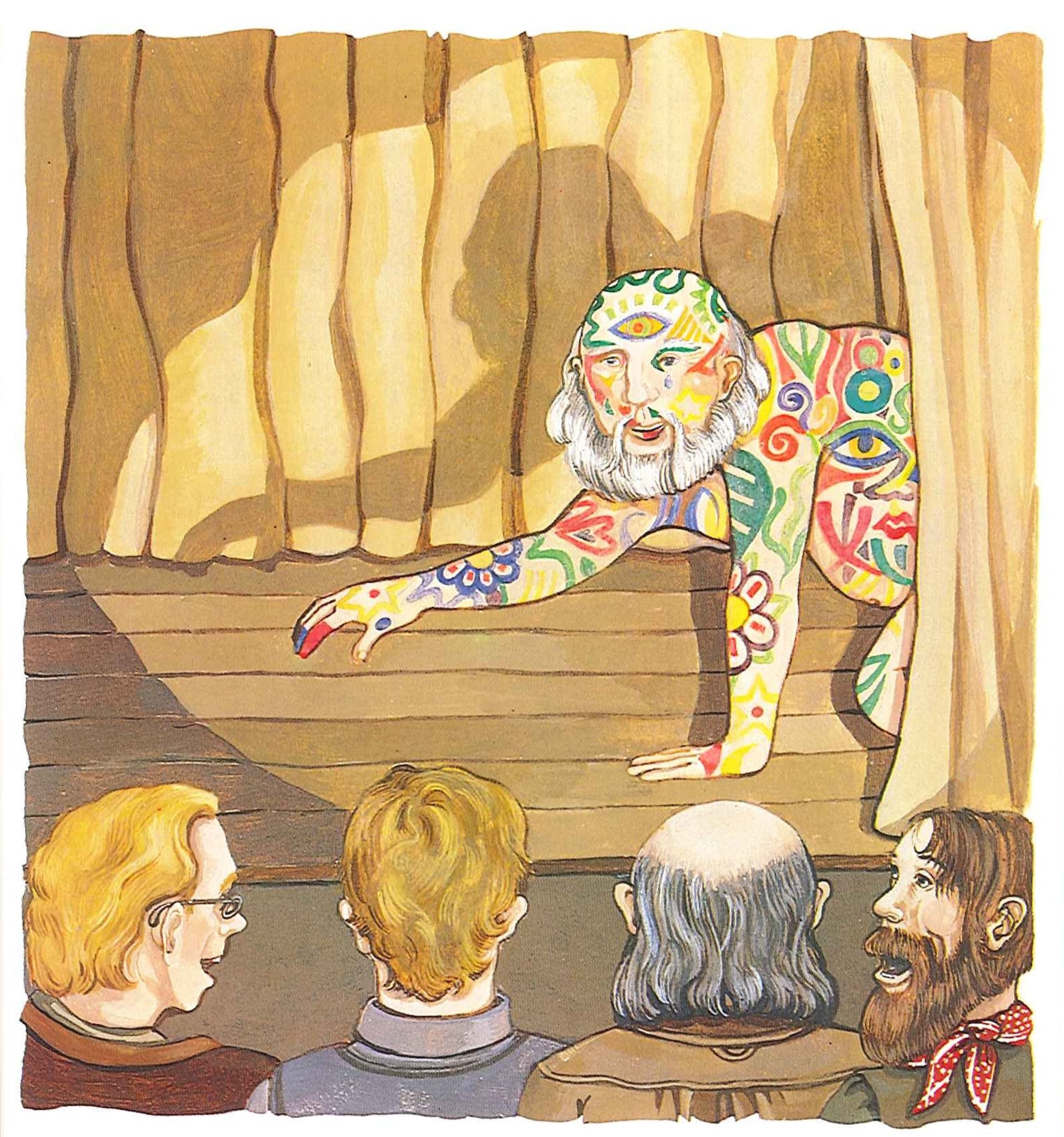
وصاحَ أَحَدُ الحاضِرينَ: «لِنُساعِدْهُ. فَلْنَجْمَعْ لَهُ بَعْضَ المالِ. خُذْ قُبَّعَتَكَ ودُرْ بِها عَلَيْنا.» فَما كانَ مِنَ المَلِكِ إِلّا أَنْ حَمَلَ قُبَّعَتَهُ بِيَدِهِ وراحَ يَطوفُ بَيْنَ النّاسِ وهُوَ يَمْسَحُ دُموعَهُ ويُوَزِّعُ عِباراتِ الشُّكْرِ والعِرْفانِ هُنا وهُناكَ. وقَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْهِ بَعْضُ المَوْجودينَ بِرَجاءِ البَقاءِ في بَلْدَتِهِمْ، وعَرَضوا إِضافَتَهُ في مَنازِلِهِمْ. ولٰكِنَّ المَلِكَ اعْتَذَرَ مِنْهُمْ مُعَلِّلًا ذٰلِكَ بِواجِبِ الذَّهابِ إلى المُحيطِ لِيُبَشِّرَ القَراصِنَةَ الخَطَأَةَ ويَهْدِيَهُمْ إلى الطَّريقِ القَويمِ الّذي اهْتَدى إِلَيْهِ.

وَجَدَ المَلِكُ ، لَدى عَوْدَتِهِ إلى العَوّامَةِ ، أَنَّهُ قَدْ جَمَعَ سَبْعَةً وثَمانينَ دولارًا ، بِالإِضافَةِ إلى حُصولِهِ عَلى بَعْضِ الطَّعامِ والشَّرابِ. وفي هٰذِهِ الأَثْناءِ لَمْ يَكُنْ ما حَقَّقَهُ الدّوقُ بِالشَّيْءِ اليَسيرِ ، فَلَقَدْ طَبَعَ بَعْضَ الإعلاناتِ عَنْ نَفْسِهِ وعَنْ صَحيفَتِهِ ، ونَجَحَ في جَمْعِ عَشَرَةِ دولاراتٍ كَرُسومٍ مُسْبَقَةٍ لِإعلاناتٍ في صَحيفَتِهِ المَزْعومَةِ. وطَبَعَ إعلانًا آخَرَ بِالخَطِّ العَريضِ عَنْ وُجودِ مُكافَأَةٍ مالِيَّةٍ ، مِقْدارُها مِئَتا دولارٍ ، لِمَنْ يَقْبِضُ عَلى «أَحَدِ العَبيدِ الفارّينَ» ، وجاءَتْ أَوْصافُهُ مُطابِقَةً تَمامًا لِجيم. وكانَ

هَدَفُهُ مِنْ ذٰلِكَ لَصْقَ هٰذا الإعْلانِ على العَوّامَةِ مَعَ رَبْطِ جيم عَلى مَتْنِها ، لِلتَّمَكُّنِ مِنَ السَّفَرِ نَهارًا ، والادِّعاءِ ، أَمامَ أَيِّ سائِلٍ ، أَنَّهُمْ قَدْ قَبَضوا عَلى العَبْدِ الفارِّ وهُمْ في طَريقِهِمْ لِتَسْليمِهِ وقَبْضِ المُكافَأَةِ. في ذٰلِكَ المَساءِ غادَروا تِلْكَ البَلْدَةَ بَعْدَ أَنِ اسْتَغَلّوا أَهْلَها وسَلَبوهُمْ مَبْلَغًا مِنَ المالِ لا بَأْسَ بِهِ.

مَرَّ اليَوْمُ الثّاني بِكامِلِهِ وهُمْ على ظَهْرِ العَوّامَةِ الجارِيَةِ عَلى صَفْحَةِ الماءِ ، وقَدْ أَمْضَوْا وَقْتَهُمْ في السِّباحَةِ أَوِ الأَكْلِ أَوِ النَّوْمِ. كَذٰلِكَ قاموا بِتَمارينَ عَلى مَشْهَدِ المُبارَزَةِ في مَسْرَحِيَّةِ «ريتْشارْد الثّالِث». وقَدْ وَقَعَ المَلِكُ خِلالَ ذٰلِكَ في الماءِ ، ولٰكِنَّهُمُ انْتَشَلوهُ إلى ظَهْرِ العَوّامَةِ بِسُرْعَةٍ. ثُمَّ أَجْرَوْا تَمْرينًا لِمَشْهَدِ الشُّرْفَةِ في «روميو وجولييت». بَعْدَ ذٰلِكَ أَخَذَ الدّوقُ يُكَرِّرُ «مُناجاة» هَمْلِت الّتي يَحْفَظُها كامِلَةً ولٰكِنْ عَلى طَريقَتِهِ الخاصَّةِ.




وَصَلوا ، بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ ، إلى بَلْدَةٍ صَغيرَةٍ في وِلايَةِ أَرْكنسو ، حَيْثُ وَجَدوا أَنَّ سيرْكًا جَوّالًا قَدْ حَطَّ رِحالَهُ في البَلْدَةِ . وقَدِ اعْتَبَروا أَنَّ جَوَّ المَرَحِ الّذي يُشيعُهُ السّيرْكُ مُؤاتٍ لَهُمْ أَيْضًا ، فَأَخَذَ الدّوقُ إعْلاناتِهِ المَسْرَحِيَّةَ وأَلْصَقَها في كُلِّ أَرْجاءِ البَلْدَةِ ، وهِيَ تَدْعو النّاسَ لِحُضورِ «أَهَمِّ المَشاهِدِ المَسْرَحِيَّةِ الّتي يُحْيِيها أَشْهَرِ

المُمَثِّلينَ» في تِلْكَ اللَّيْلَةِ بِالذّاتِ .

أَمّا هاك فَقَدْ تَوَجَّهَ فَوْرًا إلى الخَيْمَةِ الكُبْرى حَيْثُ شاهَدَ عَرْضَ السّيرْكِ . وقَدْ فُتِنَ بِما رَآهُ مِنْ أَلْعابِ قُوَّةٍ وفُروسِيَّةٍ نادِرَةٍ وحَرَكاتِ خِفَّةٍ وأَعْمالٍ بَهْلَوانِيَّةٍ بارِعَةٍ ، إلى جانِبِ الرَّقْصِ والموسيقى . وأَهَمُّ مِنْ كُلِّ هٰذا ، بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ ، عُروضُ المُهَرِّجينَ ، الّتي جَعَلَتِ الحاضِرينَ يَبْتَهِجونَ ويَضْحَكونَ مَلِيًّا . وعِنْدَما انْتَهَتْ حَفْلَةُ السّيرْكِ عَصْرًا ، عادَ هاك ووَجَدَ أَنَّ الدّوقَ والمَلِكَ يَتَهَيَّآنِ لِإقامَةِ العَرْضِ المَسْرَحِيِّ في المَساءِ . صُعِقَ الدّوقُ عِنْدَما رَأى أَنَّ الجُمْهورَ لَمْ يَزِدْ عَنِ اثْنَيْ عَشَرَ شَخْصًا ، وأُصيبَ بِخَيْبَةِ أَمَلٍ لِأَنَّ ما دَفَعوهُ لا يُغَطّي مَصاريفَهُ . وقَدْ وَصَفَ ، في فَوْرَةِ غَضَبِهِ ، أَهْلَ تِلْكَ البَلْدَةِ بِأَنَّهُمْ جَهَلَةٌ وأَغْبِياءُ ، لا يَتَذَوَّقونَ مَسْرَحِيّاتِ شكسبير ، ولٰكِنَّهُ يَعْرِفُ طَريقَةً أَفْضَلَ تَجْذِبُهُمْ إلى المَسْرَحِ . وانْكَبَّ عَلى كِتابَةِ مَجْموعَةٍ مِنَ المُلْصَقاتِ ، بِخَطِّ يَدِهِ ، تُعْلِنُ عَنْ تَقْديمِ عَرْضٍ مَسْرَحِيٍّ جَديدٍ ، لِمُدَّةِ ثَلاثِ لَيالٍ مُتَوالِيَةٍ ، بِعُنْوانِ : «زَرافَةُ المَلِكِ» أَو «العَرْضُ المَلَكِيُّ الجَريءُ» . ثُمَّ كَتَبَ في أَسْفَلِ كُلِّ إعْلانٍ بِحُروفٍ كَبيرَةٍ : «مُلاحَظَةٌ : يُمْنَعُ دُخولُ النِّساءِ والأَوْلادِ» . ولَدى انْتِهائِهِ مِنْ عَمَلِهِ تَمْتَمَ قائِلًا : «سَتَمْتَلِئُ بِهِمِ القاعَةُ غَدًا !»

قَضى الدّوقُ والمَلِكُ سَحابَةَ اليَوْمِ التّالي يُعِدّانِ المَسْرَحَ لِلعَرْضِ الكَبيرِ . وعِنْدَما حَلَّ المَساءُ كانَتِ القاعَةُ تَغُصُّ بِالمُشاهِدينَ . نُفِخَتِ الأَبْواقُ ، فَارْتَفَعَتِ السِّتارَةُ عَنْ خَشَبَةٍ فارِغَةٍ أَمامَ جُمْهورٍ مِنَ الفُضولِيّينَ المُتَشَوِّقينَ . ثُمَّ حانَتِ اللَّحْظَةُ المَوْعودَةُ ، فَظَهَرَ المَلِكُ عَلى الخَشَبَةِ ، وأَخَذَ يَتَبَخْتَرُ بِتيهٍ عَلى يَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ ، وهو عارٍ تَمامًا ، وقَدْ لُطِخَ جَسَدُهُ بِكُلِّ أَلْوانِ قَوْسِ قُزَحَ . فَانْفَجَرَ الحُضورُ مُقَهْقِهينَ . ثُمَّ أُنْزِلَتِ السِّتارَةُ بِهُدوءٍ ، ووَقَفَ الدّوقُ أَمامَها ، وخاطَبَ النَّظّارَةَ طالِبًا مِنْهُمْ تَشْجيعَ جيرانِهِمْ وأَصْدِقائِهِمْ عَلى حُضورِ هٰذا العَرْضِ الفَريدِ في اللَّيْلَةِ التّالِيَةِ ! فَصُعِقَ الحاضِرونَ عِنْدَئِذٍ وأُصيبوا بِالذُّهولِ .



صاحَ بَعْضُ الرِّجالِ غاضِبينَ: «ماذا يَعْني هٰذا؟ هَلِ انْتَهى العَرْضُ!» أَمّا الباقونَ فَظَلّوا صامِتينَ لَحَظاتٍ، ولَمْ يُريدوا أَنْ يُصَدِّقوا ما سَمِعوا. ثُمَّ هَبَّ الجَميعُ في ثَوْرَةِ غَضَبٍ جارِفٍ، وفي نِيَّتِهِمْ تَحْطيمُ المَسْرَحِ عَلى رُؤوسِ المُمَثِّلينَ.

فانْبَرى، مِنْ بَيْنِهِمْ، رَجُلٌ كَبيرُ السِّنِّ، وصاحَ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ آمِرٍ: «مَهْلًا، مَهْلًا. لَقَدْ خُدِعْنا وانْطَلَتْ عَلَيْنا حيلَةٌ ماكِرَةٌ. ولٰكِنَّنا لا نُريدُ أَنْ نُحْدِثَ ضَجَّةً ونَكْشِفَ الأَمْرَ، فنَكونَ أُضْحوكَةَ أَهْلِ البَلْدَةِ... فَلْنَذْهَبْ إِلى بُيوتِنا بِهُدوءٍ، ولْنُخْبِرْ أَصْدِقاءَنا أَنَّنا شاهَدْنا عَرْضًا رائِعًا لا يُفَوَّتُ.»

دارَتِ الأَحاديثُ في البَلْدَةِ، خِلالَ اليَوْمِ التّالي، حَوْلَ عَظَمَةِ ذٰلِكَ العَرْضِ المَسْرَحِيِّ الجَريءِ، فاكْتَظَّتِ القاعَةُ مَساءً بِالمُشاهِدينَ. وقَدْ غادَرَ هٰؤُلاءِ المَسْرَحَ

وهُمْ يُخْفونَ هَوْلَ المُفاجَأَةِ ويَكْتُمونَ الغَيْظَ. وفي اللَّيْلَةِ الثّالِثَةِ كانَ الإِقْبالُ أَكْبَرَ، وقَدْ لاحَظَ هاكْ أَنَّ جُيوبَ الرِّجالِ مُنْتَفِخَةٌ، واشْتَمَّ في الجَوِّ رَوائِحَ بَيْضٍ فاسِدٍ وفاكِهَةٍ عَفِنَةٍ وقِطَطٍ مَيْتَةٍ.

بَعْدَ أَنْ أَخَذَ الدّوقُ ما جَمَعَهُ مِنْ مالٍ لِقاءَ تَذاكِرِ الدُّخولِ، انْسَلَّ هُوَ وهاكْ مِنَ البابِ الخَلْفِيِّ والْتَقَيا بِالمَلِكِ، وذَهَبوا إِلى مَكانِ إِخْفاءِ العَوّامَةِ، وانْدَفَعوا بِها نَحْوَ المَجْرى الرَّئيسِيِّ لِلنَّهْرِ، مِنْ دونِ أَنْ يُشْعِلوا مِصْباحًا. عَبَرَتْ بِهِمِ العَوّامَةُ حَوالَى سِتَّةَ عَشَرَ كيلومِترًا، فَشَعَروا بِالاطْمِئْنانِ، وتَناوَلوا طَعامَ العَشاءِ، وأَخَذوا يَتَهَلَّلونَ فَرَحًا بِإِنْجازِهِمِ العَظيمِ. لَقَدْ جَمَعوا، خِلالَ ثَلاثِ لَيالٍ، مَبْلَغَ أَرْبَعِمِئَةٍ وخَمْسَةٍ وسِتّينَ دولارًا!



اِسْتَغْرَقَ الدّوقُ والمَلِكُ في نَوْمٍ عَميقٍ ، فيما راحَ هاك وجيم يَسْتَذْكِرانِ أَحْداثَ الأَيّامِ الأَخيرَةِ . وقَدْ أَصْبَحَ جيم الآنَ مُقْتَنِعًا بِأَنَّ هٰذا الدّوقَ وذاكَ المَلِكَ هُما مِنْ حُثالَةِ النّاسِ . ظَلَّ جيم مُسْتَيْقِظًا لِلحِراسَةِ لِيُتيحَ لِهاك مَجالًا لِلنَّوْمِ . ولَمّا أَفاقَ هاك ، بَعْدَ ساعاتٍ ، كانَ جيم يَئِنُّ ويَبْكي ، وأَخْبَرَ هاك أَنَّهُ اشْتاقَ لِزَوْجَتِهِ وأَوْلادِهِ ، وأَنَّه يَتَمَنّى أَنْ يَنْضَمَّ إِلَيْهِمْ .

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، أَعْرَبَ الدّوقُ عَنِ انْزِعاجِهِ لِاضْطِرارِهِمْ إلى رَبْطِ جيم خِلالَ ساعاتِ النَّهارِ ، وأَعْلَنَ أَنَّهُ يَنْوي إراحَتَهُ . ثُمَّ راحَ يُفَتِّشُ بَيْنَ مَجْموعَةِ الأَلْبِسَةِ الّتي لَدَيْهِ ، وأَخْرَجَ ثِيابَ شَخْصِيَّةِ المَلِكِ لير في مَسْرَحِيَّةِ شِكْسْبير الشَّهيرَةِ ، وأَلْبَسَهُ إيّاها . وقَدْ بَدا التَّنافُرُ واضِحًا في هَيْئَتِهِ ، فَشَعْرُهُ المُسْتَعارُ أَبْيَضُ وكَذٰلِكَ لِحْيَتُهُ ، أَمّا وَجْهُهُ فَمَطْلِيٌّ بِاللَّوْنِ الأَزْرَقِ الدّاكِنِ . ثُمَّ كَتَبَ بِالطَّباشيرِ عَلى لَوْحَةٍ مَوْضوعَةٍ أَمامَ الخَيْمَةِ : «غَجَرِيٌّ مَريضٌ . ولٰكِنَّهُ غَيْرُ مُؤْذٍ عِنْدَما يَكونُ بِكامِلِ قُواهُ العَقْلِيَّةِ» .

سُرَّ جيم لِأَنَّ هٰذا التَّدْبيرَ الاحْتِيالِيَّ سَيَمْنَحُهُ حُرِّيَّةَ الحَرَكَةِ ، ووَعَدَ بِالتَّصَرُّفِ كَمَجْنونٍ يَهْذي إذا ما اقْتَرَبَ أَحَدٌ مِنَ العَوّامَةِ .

لَدى الوُصولِ قُرْبَ البَلْدَةِ التّالِيَةِ ، الواقِعَةِ بِمُحاذاةِ النَّهْرِ ، نَزَلَ الدّوقُ والمَلِكُ إلى اليابِسَةِ . وقَدْ رَأَيا فَتًى غَريبًا بَدا عَلَيْهِ أَنَّهُ يَنْتَظِرُ شَخْصًا ما .

تَوَجَّهَ الفَتى بِالسُّؤالِ لِلمَلِكِ : «هَلْ أَنْتَ السَّيِّدُ هارْفي ويلكْس ؟»

– كَلّا . أَنا الكاهِنُ أَلِكْسَنْدِر بلودغِتْس . وإِنَّني آسِفٌ لِأَنَّكَ لَمْ تَلْتَقِ بِالسَّيِّدِ ويلكْس !

– وأَنا كَذٰلِكَ آسِفٌ ، لِأَنَّهُ فَوَّتَ فُرْصَةَ رُؤْيَةِ أَخيهِ بيتر قَبْلَ وَفاتِهِ .

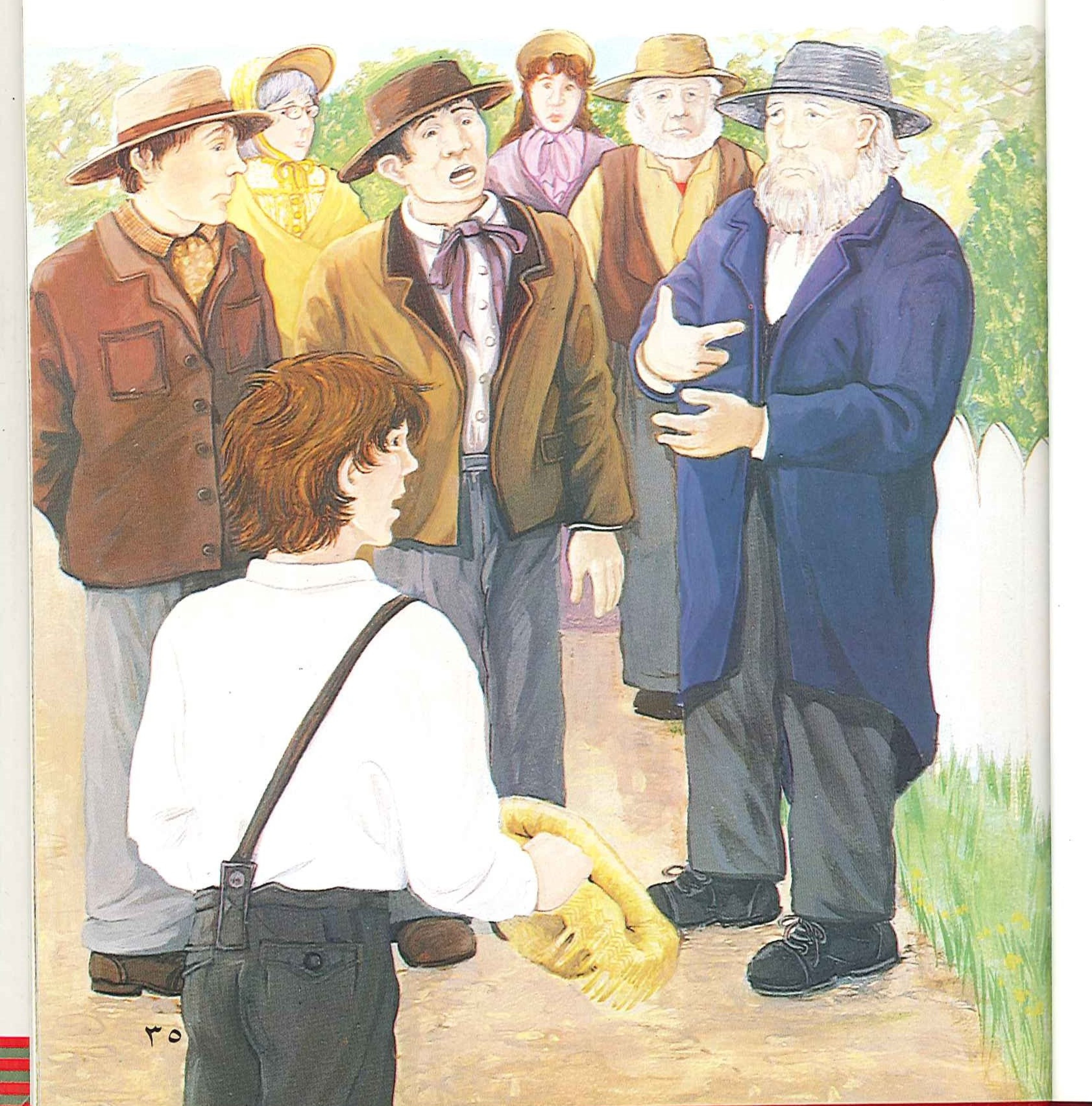
رَأى المَلِكُ أَنَّ في هٰذا الوَضْعِ فُرْصَةً كَبيرَةً لِلاسْتِفادَةِ، فَأَخَذَ يَتَحادَثُ والشّابَّ مُسْتَفْهِمًا، حَتّى عَرَفَ كُلَّ ما يَتَعَلَّقُ بِالمَرْحومِ بيتر ويلكْس وعائِلَتِهِ. عَلِمَ أَنَّ بيتر ويلكْس كانَ قَدْ كَتَبَ وَصِيَّةً نَصَّ فيها عَلى أَنَّهُ يَتْرُكُ ثَرْوَتَهُ الكَبيرَةَ لِأَخَوَيْهِ الأَكْبَرِ هارْفي والأَصْغَرِ وِلْيَم، وهٰذا الأَخيرُ أَصَمُّ وأَبْكَمُ. وقَدْ جاءَ في الوَصِيَّةِ أَنَّ حَوالَى سِتَّةِ آلافِ دولارٍ كانَتْ مُخَبَّأَةً في مِعْطَفٍ في مَكانٍ ما مِنَ البَيْتِ. وسَيَؤولُ جُزْءٌ مِنَ الأَمْلاكِ أَيْضًا لِبَناتِهِ الثَّلاثِ: ماري جين، وهِيَ في التّاسِعَةَ عَشْرَةَ، وسوزان، وهِيَ في الخامِسَةَ عَشْرَةَ، وجُوانا، ولَها أَرْبَعَةَ عَشَرَ عامًا. كَما اكْتَشَفَ أَنَّ بيتر كانَ يَعْمَلُ دَبّاغًا، أَمّا هارْفي فَكانَ يَعْمَلُ في شيفيلْد بإنكلترا. كانَتْ مَراسِمُ الدَّفْنِ سَتُقامُ في اليَوْمِ التّالي، ولٰكِنَّ الشّابَّ لَمْ يَكُنْ قادِرًا عَلى المُشارَكَةِ في التَّشْييعِ لِأَنَّهُ سَيُبْحِرُ في اليَوْمِ نَفْسِهِ إلى نيو أورْليانز.

بَدَأَ المَلِكُ فَوْرًا بِتَنْفيذِ خُطَّتِهِ، فَتَوَجَّهَ هُوَ والدّوقُ إلى البَلْدَةِ وكَأَنَّهُما نَزَلا لِتَوِّهِما مِنَ السَّفينَةِ البُخارِيَّةِ. وسَرْعانَ ما التَقَيا بِمَجْموعَةٍ مِنْ أَهْلِ البَلْدَةِ، فَبادَرَهُمُ المَلِكُ بِالسُّؤالِ: «هَلْ يَتَكَرَّمُ أَيٌّ مِنْكُمْ، أَيُّها السّادَةُ، ويُرْشِدُني إلى حَيْثُ يُقيمُ السَّيِّدُ بيتر ويلكْس؟»

سادَ الصَّمْتُ والوُجومُ، ثُمَّ خاطَبَهُ أَحَدُهُمْ بِوَقارٍ، قائِلًا: «لِلأَسَفِ يا سَيِّدي، يُمْكِنُنا أَنْ نُخْبِرَكَ أَيْنَ كانَ يُقيمُ حَتّى الأَمْسِ. لَقَدْ تَوَفّاهُ اللهُ.»

تَظاهَرَ المَلِكُ بِالمُفاجَأَةِ، وأَرْخى جِسْمَهُ حَتّى كادَ يَنْهارُ أَرْضًا وهُوَ يُوَلْوِلُ: «المِسْكينُ! لَقَدْ تُوُفِّيَ شَقيقُنا العَزيزُ، ولَمْ نَتَمَكَّنْ مِنْ وَداعِهِ. اللّٰهُمَّ أَلْهِمْنا الصَّبْرَ والعَزاءَ.»

ثُمَّ انْفَجَرَ باكِيًا وهُوَ يَقومُ بِحَرَكاتٍ وإشاراتٍ غَريبَةٍ بَلْهاءَ أَمامَ الدّوقِ. وكانَ هٰذا الأَخيرُ يَتَظاهَرُ بِأَنَّهُ لا يَسْمَعُ ولا يَتَكَلَّمُ. وقَدْ جَرى كُلُّ ذٰلِكَ وَسْطَ ذُهولِ أَبْناءِ البَلْدَةِ وتَأَثُّرِهِمِ العَميقِ. ثُمَّ قادوا الرَّجُلَيْنِ إلى داخِلِ البَلْدَةِ. أَمّا هاك الَّذي رَأى كُلَّ ما حَدَثَ، فَقَدِ اعْتَراهُ الشُّعورُ بِالاشْمِئْزازِ لِما قامَ بِهِ المَلِكُ والدّوقُ، واعْتَبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَرَ في حَياتِهِ مَنْ يُماثِلُهُما خِسَّةً ودَناءَةً.





وَصَلَ المَلِكُ والدّوقُ إلى بَيْتِ الفَقيدِ ووَجَدا الجُثْمانَ مُسَجًّى ، فَرَكَعا أَمامَهُ بِاحْتِرامٍ ظاهِرٍ وذَرَفا الدُّموعَ بِسَخاءٍ ، مِمّا جَعَلَ جَميعَ أَفْرادِ العائِلَةِ يُشارِكونَهُمُ الحُزْنَ والأَسى . ثُمَّ تَكَلَّمَ المَلِكُ بِعِباراتٍ مُؤَثِّرَةٍ جِدًّا ضَمَّنَها أَسْماءَ كُلِّ الأَصْدِقاءِ وأَفْرادِ العائِلَةِ الّذينَ سَيَبْكونَ الفَقيدَ الغالِيَ . ذٰلِكَ أَنَّهُ كانَ قَدْ حَفِظَ كُلَّ التَّفاصيلِ وجَميعَ الأَسْماءِ الّتي كَشَفَها ذٰلِكَ الفَتى الثَّرْثارُ بِكُلِّ بَراءَةٍ .


قَرَأَتْ إِحْدى الفَتَياتِ وَصِيَّةَ بيتر ، وأَشارَتْ إلى أَنَّهُ يُوجَدُ في القَبْوِ كِيسٌ يَحْوي سِتَّةَ آلافِ دولارٍ ذَهَبِيٍّ لِتُوَزَّعَ عَلى الوَرَثَةِ المُسْتَحِقّينَ . نَزَلَ المَلِكُ والدّوقُ إلى القَبْوِ وأَحْضَرا النُّقودَ ، ولٰكِنَّهُما فُوجِئا ، عِنْدَ عَدِّها ، بِأَنَّ ما في الكِيسِ أَقَلُّ مِنَ المَبْلَغِ المَذْكورِ بِأَرْبَعِمِئَةٍ وخَمْسَةَ عَشَرَ دولارًا . والأَرْجَحُ أَنَّ بيتر ويلكْس كانَ قَدْ أَخْطَأَ عِنْدَما عَدَّ الدّولاراتِ ووَضَعَها في الكِيسِ . تَظاهَرَ المَلِكُ والدّوقُ بِالتَّفَهُّمِ والعَطْفِ والحِسِّ النَّبيلِ ، فَدَفَعا المَبْلَغَ النّاقِصَ مِنْ مالِهِما الخاصِّ مُصِرَّيْنِ عَلى أَنَّ مِنْ حَقِّ الفَتَياتِ أَخْذُ حِصَصِهِنَّ مِنْ أَصْلِ المَبْلَغِ كامِلًا .

وفيما كانَ الحاضِرونَ جَميعًا يُشيدونَ بِكَرَمِ الرَّجُلَيْنِ ونُبْلِهِما ، دَخَلَ البَيْتَ رَجُلٌ طَويلٌ مُتَجَهِّمُ الوَجْهِ ، هُوَ طَبيبُ البَلْدَةِ الدُّكْتورُ روبِنْسون . أَخَذَ الدُّكْتورُ روبِنْسون يُرَدِّدُ عِباراتٍ تَتَّهِمُ المَلِكَ والدّوقَ بِالاحْتِيالِ والخِداعِ والكَذِبِ ، مُطالِبًا بِطَرْدِهِما مِنَ البَلْدَةِ ، ولٰكِنَّ كَلامَهُ لَمْ يَلْقَ آذانًا صاغِيَةً .

كانَ هاك يَرَى أَنَّهُ إذا وَضَعَ الدّوقُ والمَلِكُ أَيْدِيَهُما على المالِ، فَإِنَّ البَناتِ لَنْ يَنَلْنَ شَيْئًا مِنْهُ. وقَدْ تَأَكَّدَ مِنْ مَخاوِفِهِ تِلْكَ عِنْدَما سَمِعَ المُحْتالَيْنِ يُخَطِّطانِ لِلهَرَبِ بِالمالِ، تَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ، بَعْدَ أَنْ خَبَّآهُ مُؤَقَّتًا في إِحْدى الفُرُشِ. ولَمّا غادَرا الغُرْفَةَ، سارَعَ هاك إلى أَخْذِ كِيسِ المالِ. وإذْ فَكَّرَ في مَكانٍ آمِنٍ لِيُخَبِّئَهُ فيهِ اتَّجَهَ رَأْسًا إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ حَيْثُ وُضِعَ التابوتُ. لَمْ يَكُنْ في الغُرْفَةِ أَحَدٌ، وكانَ التّابوتُ مَفْتوحًا، فَوَضَعَ هاك كِيسَ الذَّهَبِ في التّابوتِ قُرْبَ الجُثْمانِ. في الصَّباحِ، تُلِيَتْ بَعْضُ الصَّلَواتِ وأُقْفِلَ التّابوتُ.

لاحَظَ هاك، في المَساءِ، أَنَّ ماري جين كانَتْ حَزينَةً جِدًّا، ولَمْ يَعُدْ يَتَحَمَّلُ رُؤْيَتَها هِيَ وأَفْرادَ عائِلَتِها الطَّيِّبينَ ضَحايا لِهٰذَيْنِ الخَبيثَيْنِ الماكِرَيْنِ، فَأَخْبَرَها الحَقيقَةَ: كَشَفَ لَها أَنَّ الدّوقَ والمَلِكَ مُحْتالانِ خَسيسانِ، وأَنَّهُما لَمْ يَعْرِفا الفَقيدَ قَطُّ، وطَمْأَنَها بِأَنَّ مالَ العائِلَةِ لَنْ يَضيعَ مِنْها. صَدَّقَتْ ماري جين كَلامَ هاك وأَعْلَنَتْ أَنَّ أَبْناءَ البَلْدَةِ الغاضِبينَ سَيُمَزِّقونَ هٰذَيْنِ الدَّنيئَيْنِ ويُلْقونَهُما في النَّهْرِ.

في تِلْكَ اللَّيْلَةِ، تَوَقَّفَ مَرْكَبٌ بُخارِيٌّ عِنْدَ الرَّصيفِ، ونَزَلَ مِنْهُ رَجُلانِ، أَحَدُهُما مُتَقَدِّمٌ في السِّنِّ والثّاني أَصْغَرُ مِنْهُ. اِدَّعَى الرَّجُلانِ أَنَّهُما هارْڤي ووِلْيَم ويلكْس شَقيقا المَرْحومِ پيتر ويلكْس. وكانَ يَصْحَبُهُما مُحاميهِما الأُسْتاذ بِل.





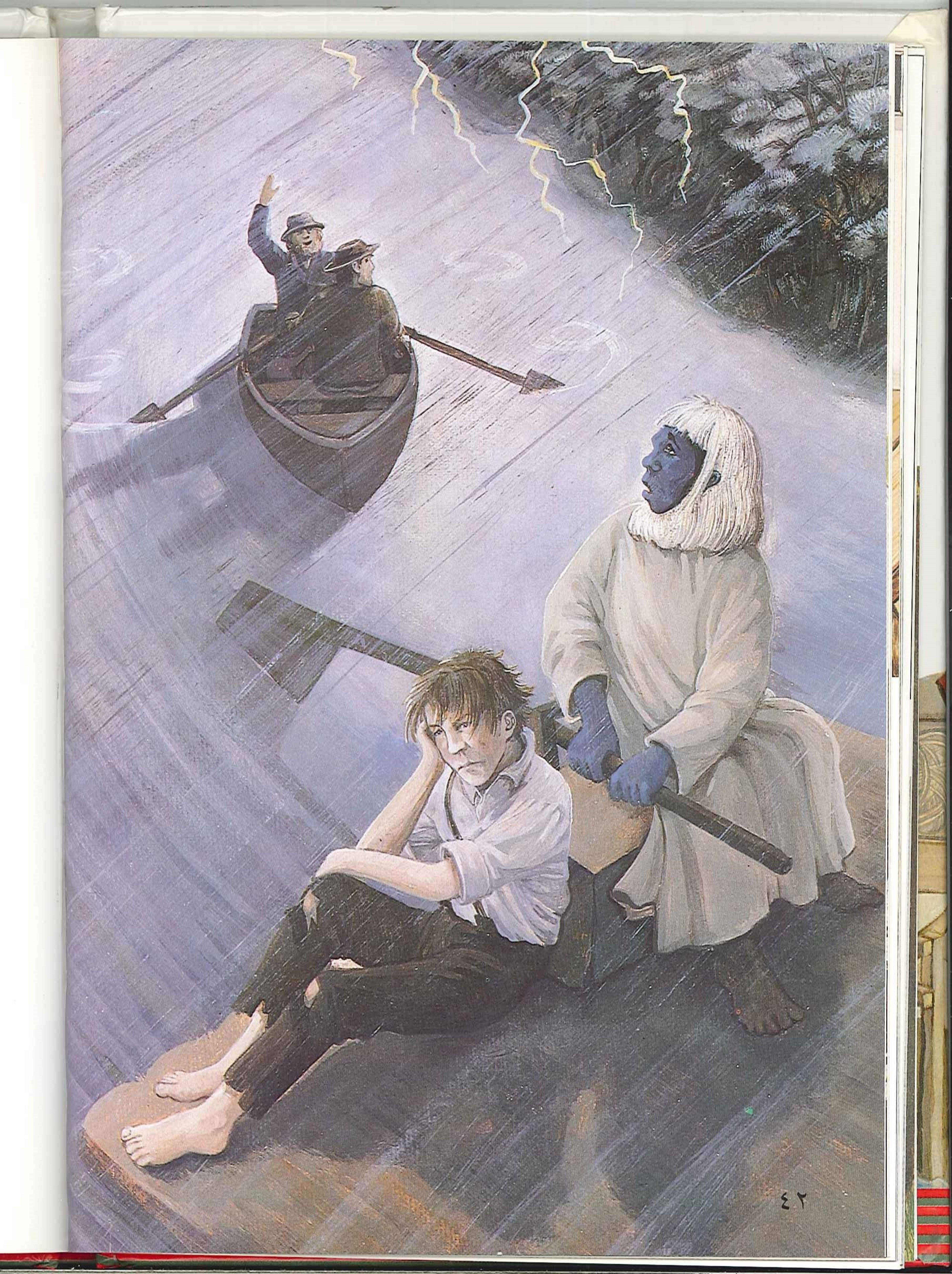
بَدأَتِ الأُمورُ تتأزَّمُ، ووقعَ أَبْناءُ البَلْدَةِ في حَيْرَةٍ، وأَخذوا يَشُكّونَ في حَقيقةِ أَفْرادِ عائِلَةِ ويلكْس كُلِّهِمْ، حتّى إِنَّهُمْ أَخذوا يَتساءَلونَ: «هَلْ دَفَنّا بيتر ويلكْس الحَقيقِيَّ بالأَمْسِ أَمْ رَجُلًا آخَرَ!»

اِرْتَفعَ صَوْتُ المُحامي وَسْطَ صَخَبِ الجُمْهورِ: «أَيُّها السّادَةُ! اِسْمَعوني مِنْ فَضْلِكُمْ.. لَيسَ هُناكَ مِنْ سَبيلٍ لِلتَّأَكُّدِ سِوى الذَّهابِ إلى المَقْبَرَةِ ونَبْشِ الجُثَّةِ. وفي أَثْناءِ ذلِكَ يَجِبُ إِمْساكُ هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ المُدَّعِيَيْنِ والصَّبِيِّ المُرافِقِ لَهُما، فَقَدْ نُضْطَرُّ إلى شَنْقِهِمْ.»

هُرِعَ أَبْناءُ البَلْدَةِ كُلُّهُمْ إلى المَقْبَرَةِ، وهُمْ يَحْمِلونَ الرُّفوشَ والمَعاوِلَ. بَدأَ

الرِّجالُ بِالعَمَلِ، وكانَ البَرْقُ اللّامِعُ يُنيرُ ظَلامَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ العاصِفَةِ. ولَمّا وَصَلوا إلى التّابوتِ، انْتابَ هاك الهَلَعُ وهُمْ يَنْزِعونَ مَساميرَ الغِطاءِ. بَعْدَ ذٰلِكَ سُمِعَتْ صَرَخاتُ دَهْشَةٍ: «إِنَّهُ بيتر ويلكْس فِعْلًا. ولٰكِنْ هُناكَ كِيسُ قِطَعٍ ذَهَبِيَّةٍ قُرْبَ رَأْسِهِ!»

ثارَ الرِّجالُ وأَخذوا يَتدافَعونَ لِرُؤْيَةِ ذٰلِكَ بِأُمِّ العَيْنِ. وخِلالَ هٰذا اللَّغَطِ الحاصِلِ أَفْلَتَ هاك مِنْ بَيْنِ آسِريهِ، وانْطَلَقَ يَعْدو مارًّا في البَلْدَةِ الخاوِيَةِ وُصولًا إلى الجَدْوَلِ الفَرْعِيِّ، فاسْتَقَلَّ قارِبًا صَغيرًا وَجَدَهُ هُناكَ، وأَخَذَ يُجَذِّفُ مُتَّجِهًا نَحْوَ العَوّامَةِ. في أَثْناءِ ذٰلِكَ رَأَى جيم القارِبَ مُتَّجِهًا نَحْوَهُ، فَخَرَجَ مِنَ الخَيْمَةِ لِلِقائِهِ.



أَخَذَ هاك وجيم يَتَهَلَّلانِ لِتَخَلُّصِهِما مِنْ صُحْبَةِ هٰذَيْنِ المُخادِعَيْنِ ، ولٰكِنْ سَرْعانَ ما شاهَدا زَوْرَقًا يَتَّجِهُ نَحْوَ العَوّامَةِ . يا لَلْحَظِّ المَنْكودِ ! إِنَّهُما المَلِكُ والدّوقُ ! فَكَيْفَ ظَهَرا مُجَدَّدًا ؟

أَمْضَى الرَّجُلانِ زُهاءَ ساعَةٍ وهُما يُحَلِّلانِ أَحْداثَ السّاعاتِ الأَخيرَةِ . وأَكْثَرُ ما حَيَّرَهُما هُوَ كَيْفِيَّةُ انْتِقالِ كيسِ الذَّهَبِ إلى التّابوتِ . وقَدِ اسْتَمَعَ هاك إِلَيْهِما مِنْ دونِ أَنْ يَنْبِسَ بِبِنْتِ شَفَةٍ .

اِنسابَتِ العَوّامَةُ مَعَ ماءِ النَّهْرِ المُنْدَفِعِ بِضْعَةَ أَيّامٍ ، مِمّا أَبْعَدَهُمْ عَنِ الخَطَرِ . كانَ المَلِكُ والدّوقُ يُمْضِيانِ السّاعاتِ يَتَحادَثانِ ويَتَناقَشانِ ، وكَأَنَّهُما يُخَطِّطانِ لِلقِيامِ ثانِيَةً بِأَعْمالِ الغِشِّ والخِداعِ . ولَدى التَّوَقُّفِ في بَعْضِ القُرى والبَلْداتِ كانا يَجْمَعانِ النّاسَ ويَخْطُبانِ في الأَخْلاقِ ، أَوْ يُعْطِيانِ دَرْسًا في الرَّسْمِ ، وأَحْيانًا يُمارِسانِ التَّنْويمَ المِغْنَطيسِيَّ . ولٰكِنَّهُما ، في كُلِّ ذٰلِكَ ، لَمْ يَلْقَيا التَّجاوُبَ المَنْشودَ وجَمَعا قَليلًا مِنَ المالِ .

بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ المَلِكُ والدّوقُ ، صَباحَ أَحَدِ الأَيّامِ ، إلى البَلْدَةِ ، تَوَجَّهَ هاك مُنْفَرِدًا إلى الشّاطِئِ ، وعادَ بَعْدَ قَليلٍ ونادى جيم ، فَلَمْ يَلْقَ جَوابًا . وإِذ تَأَكَّدَ هاك مِنْ أَنَّ صَديقَهُ جيم قَدِ اخْتَفى ، عادَ إلى الشّاطِئِ لِيَبْحَثَ عَنْهُ . وقَدِ الْتَقى بِوَلَدٍ مارٍّ مِنْ هُناكَ ، عَلِمَ مِنْهُ أَنَّ رَجُلًا عَجوزًا قَدْ سَلَّمَ ، في صَباحِ ذٰلِكَ اليَوْمِ ، عَبْدًا فارًّا ، مُقابِلَ مِئَتَيْ دولارٍ ، لِلسَّيِّدِ فيلِبْس الّذي يَقَعُ مَنْزِلُهُ على مَسافَةِ ثَلاثَةِ كيلومِتْراتٍ مِنْ قَرْيَةِ بايكسْفِل .

سَيْطَرَتْ على هاك مَشاعِرُ الحُزْنِ والغَضَبِ مَعًا ، وقَدِ اعْتَبَرَ أَنَّ هٰذا العَمَلَ هُوَ أَحْقَرُ ما يُمْكِنُ أَن يُقْدِمَ عَلَيْهِ إِنْسانٌ . أَضِفْ إلى ذٰلِكَ ، أَنَّهُ إذا كُشِفَ الأَمْرُ ، فَقَدْ يَتَوَرَّطُ هُوَ شَخْصِيًّا ويُدانُ لِمُساعَدَتِهِ عَبْدًا زِنْجِيًّا على الهَرَبِ لِتَحْريرِ نَفْسِهِ .

لِذٰلِكَ أَخَذَ هاك يُعاني مِنْ وَخزِ الضَّميرِ: فَقَدِ اعْتَبَرَ أَنَّهُ قَدْ أَخطَأَ عِنْدَما ساعَدَ جيم عَلى مُخالَفَةِ القانونِ. ولٰكِنَّهُ تَساءَلَ: هَلْ مُخالَفَةُ القانونِ خَطيئَةٌ؟ وتَوَصَّلَ إلى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ آثِمًا بَعْدَ أَنِ اسْتَعْرَضَ ما يَعْرِفُهُ عَنْ جيم مُنْذُ سَنَواتٍ، وكَيْفَ أَنَّهُ اكْتَسَبَ صَداقَتَهُ وإخْلاصَهُ وذٰلِكَ بِفَضْلِ نَفْسيَّةِ هٰذا الزِّنْجيِّ الطَّيِّبِ القَلْبِ. وأَخيرًا قَرَّرَ هاك أَنَّهُ يُفَضِّلُ تَحَمُّلَ العَذابِ عَلى خِيانَةِ هٰذا الصَّديقِ المُخْلِصِ الوَدودِ، وأَنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِلمُخاطَرَةِ بِحَياتِهِ مِنْ أَجْلِ إِنْقاذِ جيم مِنَ العُبوديَّةِ ومُساعَدَتِهِ عَلى لَمِّ شَمْلِهِ مَعَ عائِلَتِهِ.

وَصَلَ إلى القَرْيَةِ الصَّغيرَةِ الَّتي يَقَعُ بَيْتُ السَّيِّدِ فيلْپس خارِجَها، وفُوجِئَ بِرُؤْيَةِ الدّوق يَضَعُ مُلْصَقاتٍ ويُوَزِّعُ إعْلاناتٍ عَنْ إقامَةِ حَفْلَةٍ لِـ «العَرْضِ المَلَكيِّ الجَريءِ». وقَدْ صُعِقَ بِبُرودَةِ أَعْصابِ هٰذا المُحْتالِ الوَقِحِ وصَفاقَتِهِ، وكَيْفَ أَنَّهُ بَعْدَ كُلِّ ما حَصَلَ ما زالَ هُوَ وشَريكُهُ يُخَطِّطانِ لِلقِيامِ بِأَلاعيبِهِما. قالَ الدّوقُ مُعَلِّلًا ذٰلِكَ بِأَنَّهُ والمَلِكَ مُفْلِسانِ وعَلَيْهِما إقامَةُ هٰذا العَرْضِ لِكَسْبِ بَعْضِ المالِ. تَجاوَزَ هاك واقِعَةَ قِيامِ المَلِكِ بِبَيْعِ جيم لِلسَّيِّدِ فيلْپس، وتَرَكَ الدّوقَ وتابَعَ طَريقَهُ.

كانَتِ القَرْيَةُ عِبارَةً عَنْ بِضْعَةِ بُيوتٍ تُحيطُ بِها حُقولٌ مَزْروعَةٌ قُطْنًا. وكانَ بَيْتُ السَّيِّدِ فيلْپس عِنْدَ أَطْرافِها. وهُوَ بَيْتٌ خَشَبيٌّ كَبيرٌ مُحاطٌ بِبُسْتانٍ مُسَوَّرٍ مَليءٍ بِالأَشْجارِ المُثْمِرَةِ والخَضْراواتِ. أَمّا وَراءَ حُقولِ القُطْنِ فكانَ هُناكَ غاباتٌ كَثيفَةٌ. وما إِنِ اقْتَرَبَ هاك مِنْ تِلْكَ المَزْرَعَةِ المُنْعَزِلَةِ حَتّى خَرَجَتْ لِمُلاقاتِهِ امْرَأَةٌ بَيْضاءُ في حَوالَى الخامِسَةِ والأَرْبَعينَ. اِقْتَرَبَتِ المَرْأَةُ مِنْ هاك، وقَدْ فَتَحَتْ ذِراعَيْها، وصاحَتْ: «هٰذا أَنْتَ؟ وأَخيرًا جِئْتَ! تَعالَوْا يا أَوْلادُ، إِنَّهُ توم!»




أَعْلَنَت أَنَّها عَمَّتُهُ «سالي» ، وأَنَّها كانَتْ تَتَوَقَّعُ قُدومَهُ مُنْذُ عِدَّةِ أَيّامٍ ، وأَنَّ زَوْجَها «العَمَّ سَيْلاس» ذَهَبَ إلى مَرْسى البَواخِرِ لِيَكونَ في اسْتِقْبالِهِ. وأَضافَتْ: «سَيَعودُ بَعْدَ قليلٍ ، فَلْنُخَبِّئْكَ كَيْ نُفاجِئَهُ بِوُجودِكَ». وقَدْ وَضَعَتْهُ داخِلَ خِزانَةٍ صَغيرَةٍ ، ثُمَّ قَدَّمَتْهُ بِكُلِّ فَخرٍ لِزَوْجِها عِنْدَ رُجوعِهِ. وَقَفَ العَجوزُ سَيْلاس مُنْدَهِشًا وصاحَ: «أَهٰذا هُوَ توم؟» فَأَجابَتْ زَوْجَتُهُ: «بِالطَّبْعِ ، إِنَّهُ توم سُوير بِنَفْسِهِ.»

لَمْ يُصَدِّقْ هاك ما سَمِعَتْهُ أُذُناهُ ولَمْ يَنْطِقْ لِسانُهُ بِكَلِمَةٍ ، ووَجَدَ أَنْ لا مَناصَ مِنَ التَّظاهُرِ بِأَنَّهُ توم سُوير مَعَ أَنَّهُ كانَ يَخْشَى افْتِضاحَ الأَمْرِ لَدى ظُهورِ توم سُوير الحَقيقِيِّ. حاوَلَ هاك اكْتِسابَ بَعْضِ الوَقْتِ لِلتَّفْكيرِ بِطَريقَةٍ لِلخُروجِ مِنْ هٰذا المَأْزِقِ ، فَتَرَكَ المَنْزِلَ بِحُجَّةِ أَنَّهُ ذاهِبٌ إلى مَكانِ وُجودِ الباخِرَةِ لِإِحْضارِ أَمْتِعَتِهِ.

مَرَّتْ قُرْبَهُ في الطَّريقِ عَرَبَةٌ ، وكانَ فيها توم سُوير بِنَفْسِهِ. وقَدْ هَلِعَ توم لَدى رُؤْيَةِ هاك ، إِذْ خالَ أَنَّهُ رَأَى شَبَحًا ، فَهُوَ سَمِعَ بِالأَخْبارِ الَّتي تَناقَلَها النّاسُ عَنْ مَصْرَعِ هاك قَبْلَ عِدَّةِ أَشْهُرٍ.

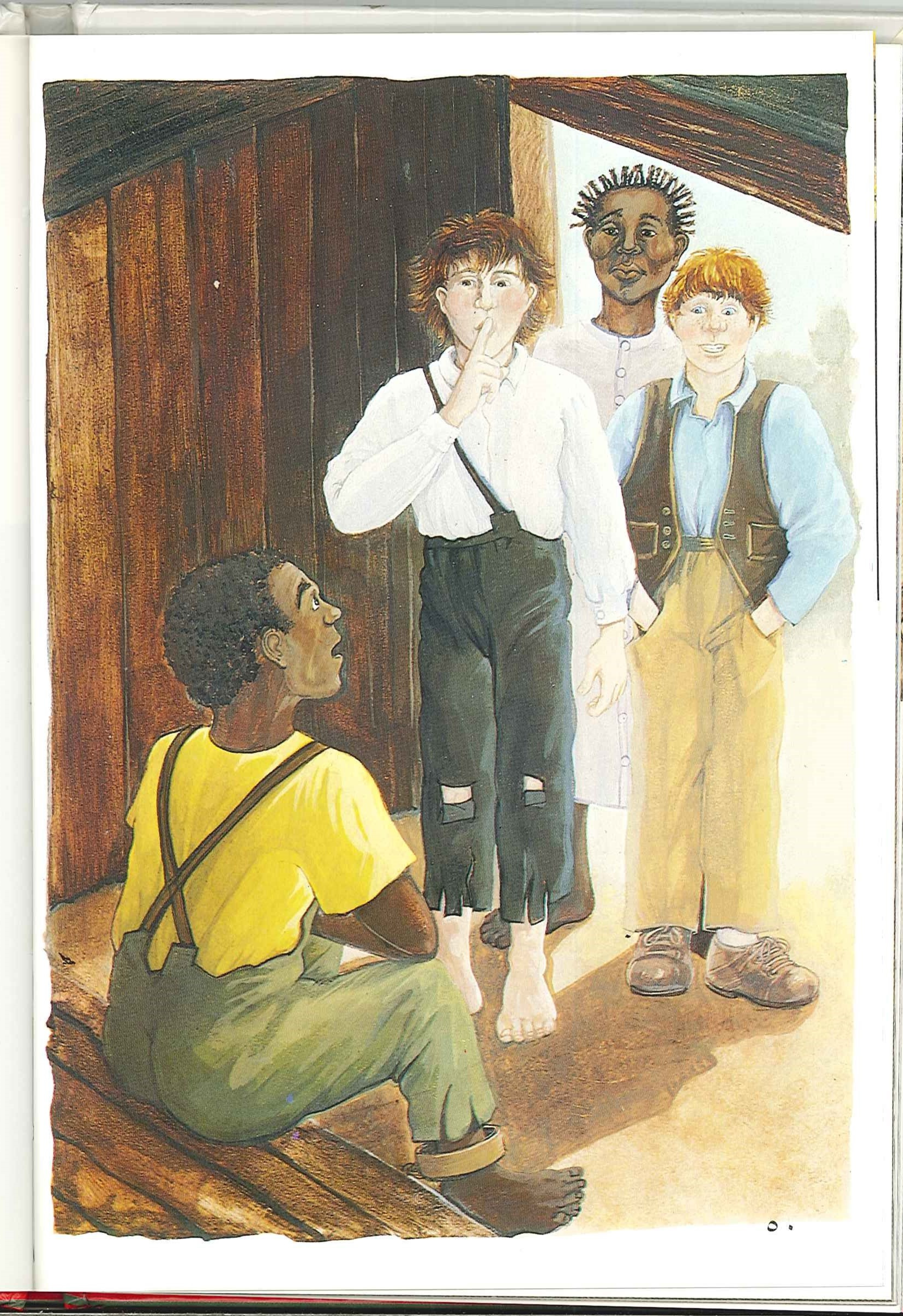
شَرَحَ هاك لِتوم كُلَّ ما حَصَلَ مَعَهُ ، ولٰكِنَّهُ رَجاهُ أَنْ يَهْدِيَهُ إلى حَلٍّ لِلخُروجِ مِنْ وَرْطَتِهِ الحالِيَّةِ وهِيَ ادِّعاؤُهُ بِأَنَّهُ توم. واعْتَرَفَ لِتوم بِأَنَّهُ قَدْ خالَفَ القانونَ إِذْ ساعَدَ جيم عَلى الهَرَبِ. اِعْتَقَدَ هاك أَنَّ توم سَيَلومُهُ على فَعْلَتِهِ تِلْكَ ، ولٰكِنَّهُ سُرَّ لَمّا وَجَدَ أَنَّ توم يُؤَيِّدُهُ في ذٰلِكَ وأَنَّهُ سَيُسْهِمُ مَعَهُ في مُساعَدَةِ جيم.





عادَ هاك إلى مَزْرَعَةِ آلِ فيلْبس ، ثُمَّ تَبِعَهُ توم بَعْدَ قَليلٍ ، كَما اتَّفقا . أَوْقَفَ توم عَرَبَتَهُ ، وحَيّا السَّيِّدَ والسَّيِّدَةَ فيلْبس بِأَدَبٍ ، مُعَرِّفًا عَنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ ولْيَم طومْسون مِنْ بَلْدَةِ هكسْڤيل في أوهايو، وأَنَّهُ سَيُتابِعُ طَريقَهُ مُتَوَجِّهًا إلى بَيْتِ السَّيِّدِ أَرْشيبالْد نيكولْز (وكانَ توم قَدْ عَلِمَ بِهٰذا الاسْمِ بِدَهائِهِ وفِطْنَتِهِ في الأَسْئِلَةِ) . دَعَتْهُ السَّيِّدَةُ فيلْبس لِلإقامَةِ في مَنْزِلِهِمْ بِضْعَةَ أَيّامٍ ، فَقَبِلَ الدَّعْوَةَ بِكُلِّ شُكْرٍ وامْتِنانٍ . كانَ هاك ، في أَثْناءِ ذٰلِكَ ، مُنْدَهِشًا لِسَعَةِ خَيالِ توم وسُرْعَةِ خاطِرِهِ وقُدْرَتِهِ على التَّظاهُرِ بِأَيِّ شَيْءٍ ، وكَأَنَّهُ يَفوقُ المَلِكَ والدّوقَ دَهاءً . حَتّى إِنَّهُ لَمْ يَكْتَفِ بِرِوايَتِهِ الأُولى ، فَاعْتَرَفَ لِلسَّيِّدَةِ فيلْبس بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنِ السَّيِّدَ طومْسون وإِنَّما هو في الحَقيقَةِ «سِيد» أَخو توم سُوير. فَما كانَ مِنَ السَّيِّدَةِ فيلْبس إِلّا أَنْ رَحَّبَتْ بِهِ تَرْحيبًا حارًّا ، وأَعْرَبَتْ عَنِ اعْتِبارِها رِوايَتَهُ الأُولى دُعابَةً طَريفَةً .

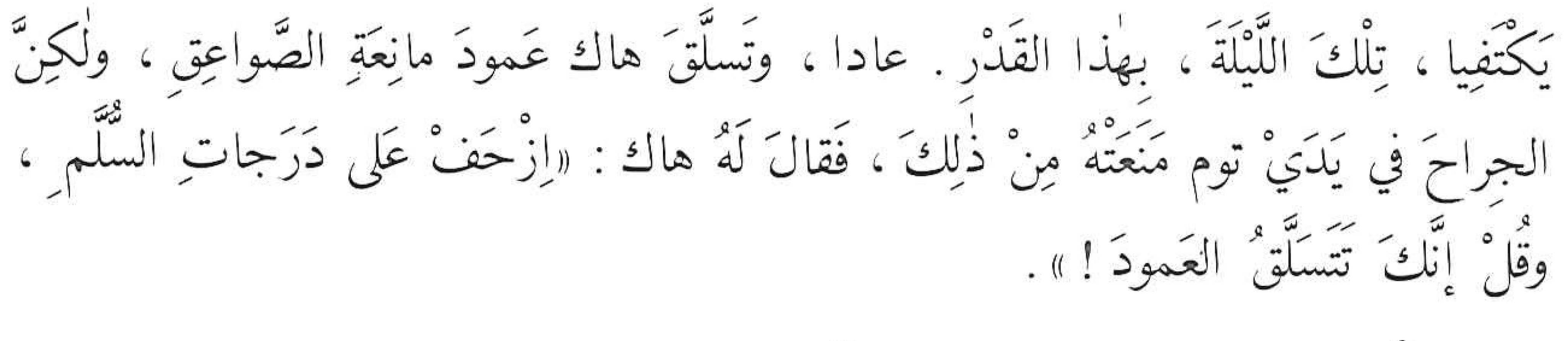
كانَ هاك وتوم يَتَجاذَبانِ أَطْرافَ الحَديثِ ، في غُرْفَةِ النَّوْمِ المُخَصَّصَةِ لَهُما ، وأَخَذا يَتَبادَلانِ أَخْبارَ مُغامَراتِهِما . ثُمَّ قَرَّرا أَنْ يَذْهَبا إلى البَلْدَةِ لِلاسْتِطْلاعِ ، فَنَزَلا مِنَ النّافِذَةِ ، وانْطَلَقا . اِقْتَرَبا مِنَ البَلْدَةِ ، فَسَمِعا دَوِيَّ طَلَقاتٍ نارِيَّةٍ وأَصْواتًا كالمُواءِ مَصْحوبَةً بِقَرْعِ طُبولٍ وقَرْقَعَةِ صَفيحٍ ونَفْخِ أَبْواقٍ . والواقِعُ أَنَّ أَهْلَ البَلْدَةِ قَدِ اكْتَشَفوا أَنَّهُمْ ضَحِيَّةُ خِداعِ المَلِكِ والدّوقِ ، فَقَبَضوا عَلَيْهِما وأَوْسَعوهُما ضَرْبًا ، ثُمَّ أَخَذوا يَطوفونَ بِهِما في أَرْجاءِ البَلْدَةِ وهُما مُقَيَّدانِ . ومَعَ اقْتِناعِ هاك بِأَنَّ هٰذا هُوَ جَزاءُ تَمادِيهِما في الشَّرِّ ، إِلّا أَنَّهُ رَثَى لِحالِهِما وهُما يَنالانِ ذٰلِكَ الإِذْلالَ . وقَدْ أَحْزَنَهُ أَنْ يَرَى مَدَى القَسْوَةِ والشَّراسَةِ الّتي تَسودُ العَلاقاتِ بَيْنَ البَشَرِ .



كانَ هَمُّ هاك وتوم الآنَ إيْجادَ جيم وإنْقاذَهُ. وقَدِ اسْتَطاعا – بِتَحَرِّياتِهِما الذَّكِيَّةِ – أَنْ يَكْتَشِفا أَنَّ جيم كانَ مَسْجونًا في كُوخٍ يَقَعُ في البُسْتانِ المُحيطِ بِالمَنْزِلِ، ويَحْرُسُهُ خادِمٌ زِنْجِيٌّ. وقَدْ قَدَّما لِلخادِمِ رَشْوَةً فَتَمَكَّنا مِنَ الدُّخولِ إلى الكُوخِ. كادَ جيم يَفْضَحُ الأَمْرَ عِنْدَما عَبَّرَ عَنْ سُرورِهِ العارِمِ لِرُؤْيَةِ صَديقَيْهِ القَديمَيْنِ، ولٰكِنَّ هاك هَمَسَ في أُذُنِهِ طالِبًا مِنْهُ عَدَمَ إظْهارِ مَعْرِفَتِهِ بِهِما، وطَمْأَنَهُ إلى أَنَّهُما يُخَطِّطانِ لِإِنْقاذِهِ.

كانَ بِالإمْكانِ إخْراجُ جيم – بِكُلِّ بَساطَةٍ – مِنَ النّافِذَةِ. ولٰكِنَّ توم سُوير اعْتَبَرَ أَنَّ تِلْكَ عَمَلِيَّةٌ عادِيَّةٌ تافِهَةٌ لا تَليقُ بِبَراعَتِهِ. كانَ عَلَيْهِما اعْتِمادُ خُطَّةٍ جَريئَةٍ كَحَفْرِ نَفَقٍ تَحْتَ الأَرْضِ أَوْ إحْداثِ ثَقْبٍ كَبيرٍ في جِدارِ الكُوخِ. ومِنْ مَراحِلِ الخُطَّةِ المُتَكامِلَةِ خُطُواتٌ جَريئَةٌ كَتَخْديرِ الحُرّاسِ، وفَتْحِ الأَقْفالِ المَتينَةِ، ونَشْرِ السَّلاسِلِ، وإدْخالِ سُلَّمٍ مِنْ حِبالٍ... وخُطَّةُ الإنْقاذِ المُسَلِّيَةُ يَجِبُ أَنْ تَتَضَمَّنَ بَعْثَ رَسائِلَ سِرِّيَّةٍ مَحْفورَةٍ عَلى أَسْفَلِ صَحْنِ الطَّعامِ، وأَنْ تُنَفَّذَ بِاسْتِعْمالِ أَدَواتٍ بَسيطَةٍ مِمّا يَتَوافَرُ لِلسَّجينِ. وقَدْ أَصَرَّ توم عَلى أَنْ يَتِمَّ الحَفْرُ بِواسِطَةِ سِكّينَيْنِ صَغيرَتَيْنِ يُمْكِنُ تَحْويلُ إحْداهُما إلى مِنْشارٍ. وعِنْدَما وَجَدَ هاك مِنْشارًا صَدِئًا وفَأْسًا ومِعْوَلًا، وأَخْبَرَ توم بِذٰلِكَ، رَفَضَ هٰذا الأَخيرُ اسْتِعْمالَها مُعْتَبِرًا أَنَّ هاك لا يَعْرِفُ كَيْفَ يُخَطِّطُ لِعَمَلِيَّةِ إنْقاذٍ ذاتِ مُسْتَوًى.

في اللَّيْلَةِ التّالِيَةِ ، بَيْنَما كانَ الجَميعُ نِيامًا ، تَسَلَّلَ هاك وتوم مِنْ غُرْفَتِهِما ، ونَزَلا عَلى عَمودِ مانِعَةِ الصَّواعِقِ ، ثُمَّ تَوَجَّها إلى كُوخِ جيم. أَخَذا يَحْفِرانِ ويَحْفِرانِ بِواسِطَةِ السِّكّينَيْنِ الصَّغيرَتَيْنِ حَتّى اقْتَرَبَ الفَجْرُ. كادَتْ أَيْديهِما تَتَشَقَّقُ وتَدْمى ، واعْتَرَفَ توم بِأَنَّ إكْمالَ حَفْرِ النَّفَقِ سَيَسْتَغْرِقُ حَوالَى سَبْعٍ وثَلاثينَ سَنَةً. رَأى أَنَّهُ يَتَوَجَّبُ اسْتِعْمالُ المَعاوِلِ والرُّفوشِ الحَقيقِيَّةِ والقَوْلُ بِأَنَّها سَكاكينُ ؛ وهٰكَذا يَكونُ قَدْ حافَظَ عَلى مَبادِئِهِ. وقَدْ أَنْجَزا في حَوالَى نِصْفِ ساعَةٍ مُعْظَمَ النَّفَقِ ، ثُمَّ رَأَيا أَنْ



يَكْتَفِيا ، تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، بِهٰذا القَدْرِ. عادا ، وتَسَلَّقَ هاك عَمودَ مانِعَةِ الصَّواعِقِ ، ولٰكِنَّ الجِراحَ في يَدَيْ توم مَنَعَتْهُ مِنْ ذٰلِكَ ، فَقالَ لَهُ هاك : «اِزْحَفْ عَلى دَرَجاتِ السُّلَّمِ ، وقُلْ إنَّكَ تَتَسَلَّقُ العَمودَ ! ».


اِسْتَأْنَفَ توم وهاك الحَفْرَ في اللَّيْلَةِ التّالِيَةِ ، وسَرْعانَ ما وَصَلا إلى داخِلِ السِّجْنِ ، وجاءَتِ الحُفْرَةُ تَحْتَ سَريرِ جيم مُباشَرَةً. طارَ جيم المِسْكينُ فَرَحًا لَدى رُؤْيَةِ صَديقَيْهِ داخِلَ الكُوخِ ، ولٰكِنَّ توم أَصَرَّ عَلى أَنْ يَتِمَّ الإنْقاذُ بِحَسَبِ الأُصولِ. فَعَمِلا عَلى أَنْ يُهَرِّبا لِلسَّجينِ سُلَّمًا مِنْ حِبالٍ ، وصُحونًا مَعْدِنِيَّةً لِيَحْفِرَ عَلَيْها الرَّسائِلَ بِواسِطَةِ مِسْمارٍ كَبيرٍ ، بِالإضافَةِ إلى بِضْعِ شَمَعاتٍ ، ومُلاءَةٍ لِتُسْتَعْمَلَ كَسُلَّمٍ إضافِيٍّ ، وقَميصٍ عَتيقٍ مِنْ قُمْصانِ العَمِّ سَيْلاس لِيَكْتُبَ عَلَيْهِ جيم مُذَكِّراتِهِ.



خطَرَتْ ببالِ توم فِكْرَةٌ غريبَةٌ أُخرى، مُفادُها أَنَّ الزَّنْزانَة الحقيقيَّةَ تَعبثُ فيها العَناكِبُ والجرْذانُ والحيّاتُ. لِذٰلِكَ انطَلَقَ هُوَ وهاك لِيَجْمَعا أَكبَر عَدَدٍ مُمْكِنٍ مِنْها.

تمكّنا، بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ، مِنْ إيقاعِ خَمْسَةَ عشَرَ جُرَذًا في الشَّرَكِ، وجمَعا جَيْشًا مِنَ الحشَراتِ والضَّفادِعِ وأَكْثَرَ مِنْ عِشْرينَ حيَّةً مِنَ البَساتينِ في الجِوارِ. وقَدْ حمَلا تِلْكَ الغَنائِمَ إلى المنْزِلِ، وسرْعانَ ما انْتَشَرَتْ في أَرْجائِهِ، تتدَلَّى مِنْ بَيْنِ أَلْواحِ الجُدْرانِ الخشَبِيَّةِ، أَوْ تتَسَلَّلُ بَيْنَ المَقاعِدِ وتَقْفِزُ على الصُّحونِ، وتَنْسابُ في الخزائِنِ والأَدْراجِ، مُثيرَةً الرُّعْبَ والفزَعَ في قُلوبِ كُلِّ أَهْلِ البَيْتِ. وأَخيرًا جُمِعَ شَتاتُ هٰذِهِ المَجْموعَةِ الغازِيَةِ في أَكْياسٍ رُبِطَتْ بِإحْكامٍ. ثُمَّ أُخِذَتِ الأَكْياسُ وفُتِحَتْ داخِلَ زَنْزانَةِ جيم. يا لَجيمِ المِسْكينِ، لَقَدْ ذاقَ الأَمَرَّيْنِ مِنْ تِلْكَ الزَّحّافاتِ والدَّوابِّ الَّتي اندَسَّتْ في فِراشِهِ، ودَخَلَتْ في ثِيابِهِ، وشاطَرَتْهُ طَعامَهُ. ولَمْ يَسْتَطِعِ السَّجينُ التَّعِسُ أَنْ يَفْهَمَ لِماذا كانَ علَيْهِ تحَمُّلُ كُلِّ ذٰلِكَ العَذابِ، حتّى إنَّهُ اعْتَبَرَ السِّجْنَ أَقْسى ما يُمْكِنُ أَنْ يُواجِهَهُ إنْسانٌ في حَياتِهِ.

عاشَ جيم في هٰذا الجَحيمِ ثَلاثَةَ أَسابيعَ تَمَّمَ خِلالَها كُلَّ واجِباتِهِ كَسَجينٍ يَنْتَظِرُ لَحظَةَ الفِرارِ. وتَفَتَّقَتْ عَبْقَرِيَّةُ توم عَنْ عَمَلٍ رَآهُ ضَرورِيًّا لإضْفاءِ طابَعٍ دراماتيكيٍّ على عَمَلِيَّةِ الإنْقاذِ: فَقَدْ كَتَبَ رِسالَةَ تَحْذيرٍ وغَرَزَها على ظَهْرِ الحارِسِ الزِّنْجِيِّ الَّذي كانَ نائِمًا خِلالَ حِراسَتِهِ الكوخَ. وقالَ في الرِّسالَةِ إنَّ عِصابَةً خَطيرَةً قَدْ خَطَّطَتْ لِاخْتِطافِ جيم، لَيْلًا، لِنَيْلِ الجائِزَةِ المُخَصَّصَةِ لِلقَبْضِ على ذٰلِكَ العَبْدِ الفارِّ.



فَعَلَتْ تِلْكَ الرِّسالَةُ فِعْلَتَها بِسُرْعَةٍ. في مَساءِ اليَوْمِ التّالي، دَخَلَ هاك غُرْفَةَ الجُلوسِ، وفُوجِئَ بِوُجودِ خَمْسَةَ عَشَرَ مُزارِعًا، يَحْمِلُ كُلٌّ مِنْهُمْ بُنْدُقِيَّةً. جَلَسوا جَميعًا صامِتينَ يَرْصُدونَ الكوخَ ويَتَرَقَّبونَ حُدوثَ أَيِّ حَرَكَةٍ لِيَنْطَلِقوا ويَصُدّوا أَفْرادَ العِصابَةِ.

رَأى هاك أَنَّ الوَقْتَ قَدْ حانَ لِلعَمَلِ، فَما إِنْ طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَأْوِيَ إلى فِراشِهِ حَتّى صَعِدَ مُسْرِعًا إلى غُرْفَةِ النَّوْمِ، ونَزَلَ هُوَ وتوم على عَمودِ مانِعَةِ الصَّواعِقِ، وتَوَجَّها لِتَحْريرِ جيم. عِنْدَما أَصْبَحَ كُلُّ شَيْءٍ جاهِزًا، صَرَخَ توم قاصِدًا لَفْتَ انْتِباهِ المُزارِعينَ لإِضْفاءِ نَكْهَةٍ مِنَ الإِثارَةِ والتَّشْويقِ على العَمَلِيَّةِ! تَسَلَّلَ هُوَ وهاك وجيم زاحِفينَ عَبْرَ النَّفَقِ الّذي كانَ قَدْ أُعِدَّ لِهذا الغَرَضِ، ثُمَّ انْطَلَقوا يَعْدونَ في الحُقولِ ساعينَ لِلوُصولِ إلى زَوْرَقِهِمِ الصَّغيرِ. وقَدْ لَحِقَ بِهِمِ المُزارِعونَ، مِنْ بَعيدٍ، وأَطْلَقوا بِضْعَ طَلَقاتٍ نارِيَّةٍ، أَصابَتْ إِحْداها توم في ساقِهِ. لَمْ يَنْزَعِجْ توم، في بادِئِ الأَمْرِ، فَعَبَروا النَّهْرَ بِواسِطَةِ الزَّوْرَقِ ووَصَلوا إلى الجَزيرَةِ الصَّغيرَةِ، حَيْثُ

كانَتِ العَوّامَةُ. هُناكَ أَحَسَّ توم بِأَلَمٍ شَديدٍ، ورَأى هاك وجيم عِنْدَها ضَرورَةَ إِحْضارِ طَبيبٍ، فَعادَ هاك إلى القَرْيَةِ ووَجَدَ طَبيبًا. كانَ الطَّبيبُ رَجُلًا رَزينًا طَيِّبَ القَلْبِ، وقَدْ أَصْغى إلى كَلامِ هاك - ولَمْ يَكُنْ كُلُّهُ صَحيحًا - بِاهْتِمامٍ بالِغٍ، ثُمَّ رَكِبَ الزَّوْرَقَ الصَّغيرَ الّذي لا يَتَّسِعُ إِلّا لِشَخْصٍ واحِدٍ. وتَوَجَّهَ الطَّبيبُ وَحْدَهُ إلى الجَزيرَةِ، فيما أَمْضى هاك اللَّيْلَةَ على الشّاطِئِ ساهِرًا يَنْتَظِرُ عَوْدَتَهُ. ولٰكِنَّ النُّعاسَ غَلَبَهُ أَخيرًا، فَنامَ. اِسْتَيْقَظَ هاك في الصَّباحِ الباكِرِ، وأَسْرَعَ إلى مَنْزِلِ الطَّبيبِ لِيَسْأَلَهُ عَنْ حالَةِ توم، فَقيلَ لَهُ إِنَّ الطَّبيبَ خَرَجَ مُنْذُ بِضْعِ ساعاتٍ. قَفَلَ هاك راجِعًا، وهَدَفُهُ التَّوَجُّهُ إلى حَيْثُ العَوّامَةُ، ولٰكِنَّهُ الْتَقى بِالعَمِّ سيلاس الّذي كانَ يَبْحَثُ عَنْهُ وعَنْ توم. أَصَرَّ العَمُّ سيلاس على إِرْجاعِ هاك مَعَهُ إلى المَنْزِلِ، فَالعَمَّةُ سالي كانَتْ شَديدَةَ القَلَقِ لاخْتِفائِهِما. عِنْدَما وَصَلا، تَبَدَّدَ شَيْءٌ مِنْ قَلَقِها لِرُؤْيَةِ هاك (أَيْ توم سوير بِالنِّسْبَةِ إِلَيْها) سَليمًا. وأَخَذَتْ تُصْغي لِرِواياتِهِ وتَبْريراتِهِ، والدَّهْشَةُ تَتَمَلَّكُها.



في صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، خَرَجَ العَمُّ سيْلاس باكِرًا لِيَبْحَثَ عَنْ سِيد (أيْ توم) . وقَدْ عادَ بِهِ ظُهْرًا وهُوَ مَحْمولٌ على نَقّالَةٍ . صَرَخَتِ العَمَّةُ سالي جَزَعًا إذْ حَسِبَتْ أنَّ الصَّبِيَّ المِسْكينَ قَدْ ماتَ . ولَمْ يَزُلْ خَوْفُها إلّا عِنْدَما تَحَرَّكَ توم وتَمْتَمَ بِضْعَ كَلِماتٍ . ثُمَّ أتى الطَّبيبُ ، وجيم وراءَهُ مُقَيَّدٌ بِالسَّلاسِلِ . قالَ الطَّبيبُ إنَّ بَعْضَ المُزارِعينَ كانوا يَنْوُونَ شَنْقَ جيم بِصِفَتِهِ عَبْدًا فارًّا ، ولٰكِنَّهُ حالَ دونَ ذٰلِكَ ، ودافَعَ عَنْهُ .

أَخْبَرَهُمُ الطَّبيبُ أنَّهُ ، عِنْدَما ذَهَبَ إلى العَوّامَةِ لِيُعايِنَ توم ، كانَ وَحْدَهُ ، لِأَنَّ هاك ظَلَّ عِنْدَ ضَفَّةِ النَّهْرِ . لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَسْتَخْرِجَ الرَّصاصَةَ مِنْ ساقِ توم مِنْ دونِ مُساعَدَةِ أَحَدٍ . ثُمَّ ظَهَرَ جيم فَجْأَةً ، وعَرَضَ المُساعَدَةَ . وأَضافَ : «إنَّني أقولُها بِالفَمِ المَلآنِ : إنَّ عَبْدًا كَهٰذا يُساوي أَلْفَ دولارٍ ! ويَسْتَحِقُّ أنْ يُعامَلَ بِلُطْفٍ . لَقَدْ كُنْتُ هُناكَ على العَوّامَةِ ، وَحيدًا ، أمامَ إنْسانٍ مُصابٍ وعَبْدٍ فارٍّ . كانَ بِاسْتِطاعَتِهِ أنْ يَسْتَغِلَّ المَوْقِفَ ويَهْرُبَ ، ولٰكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ . أنا أرى أنَّهُ إنْسانٌ طَيِّبٌ .»

رَأَوْا أنْ يُعيدوا سَجْنَ جيم ، في الوَقْتِ الرّاهِنِ ، فَأَرْجَعوهُ مُقَيَّدًا إلى الكوخِ . أمّا توم فكانَ طَريحَ الفِراشِ ، وقَدْ جَلَسَتِ العَمَّةُ سالي طَوالَ الصَّباحِ قُرْبَ سَريرِهِ . بَعْدَ الظُّهْرِ تَحَسَّنَتْ حالُهُ ، وأَصْبَحَ قادِرًا على الكَلامِ ؛ فَشَرَحَ لِلعَمَّةِ سالي كَيْفَ تَمَّ تَخْطيطُ عَمَلِيَّةِ إنْقاذِ جيم وتَنْفيذُها .

عِنْدَما عَلِمَ توم أنَّ جيم قَدْ أُعيدَ إلى السِّجْنِ ، جُنَّ جُنونُهُ وصَرَخَ : «أَطْلِقوهُ حالًا ! إنَّهُ لَيْسَ عَبْدًا . هُوَ إنْسانٌ حُرٌّ كَأَيِّ واحِدٍ مِنّا .»

فَتَساءَلَتِ العَمَّةُ سالي : «هَلْ تَعْني ما تَقولُ ؟»

وأَجابَ توم : «أَجَلْ ، أَجَلْ . لَقَدْ أَعْلَنَتِ الآنِسَةُ واتسون ، قَبْلَ وَفاتِها مُنْذُ شَهْرَيْنِ ، إعْتاقَهُ مِنَ العُبودِيَّةِ ، ونَصَّتْ على ذٰلِكَ في وَصِيَّتِها .»

اِزْدادَتِ العَمَّةُ سالي تَعَجُّبًا واسْتِغْرابًا وسَأَلَتْ توم : «بِرَبِّكَ قُلْ لي إذًا ، لِماذا تَجَشَّمْتَ كُلَّ هٰذا العَناءِ ، وسَبَّبْتَ كُلَّ هٰذِهِ المَشاكِلِ لِتَحْريرِهِ وهُوَ إنْسانٌ حُرٌّ ؟ !»

فَأَجابَ : «يا لَهُ مِنْ سُؤالٍ ! لَقَدْ رَغِبْتُ في المُغامَرَةِ والإثارَةِ ! كانَتِ العَمَلِيَّةُ رائِعَةً .»

وَصَلَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ آخِرُ مَنْ كانَ يُتَوَقَّعُ وُصولُهُ : إِنَّها پولي عَمَّةُ توم. لَقَدْ قَطَعَتْ حَوالَى أَلْفٍ وَثَمانِمِئَةِ كيلومِتْرٍ في النَّهْرِ بَحْثًا عَنْهُ. وقَدْ تَعَجَّبَ الجَميعُ عِنْدَما حَيَّتْ سِيد بِاسْمِ توم.

قالَتِ العَمَّةُ سالي : «هٰذا لَيْسَ توم ! إِنَّهُ سِيد .. توم كانَ هُنا مُنْذُ دَقائِقَ.» أَمَّا العَمَّةُ پولي فَقالَتْ : «لا بُدَّ أَنَّهُ هاكلبري فِين. أُخْرُجْ مِنْ تَحْتِ السَّريرِ يا هاك.»

خَرَجَ هاك مِنْ تَحْتِ السَّريرِ ، وحَيَّتْهُ العَمَّةُ پولي بِحَرارَةٍ ، وأَخَذَتْ تَشْرَحُ لِلجَميعِ حَقيقَةَ هُوِيَّةِ الوَلَدَيْنِ. وأَضافَتْ أَنَّها ، لَدى دُخولِها ، سَمِعَتْ توم يُخْبِرُهُمْ عَنْ إِعْتاقِ الآنِسَةِ واتسون لِجيم ، وإِنَّها تُؤَكِّدُ ذٰلِكَ. ولٰكِنَّها تَساءَلَتْ لِمَ لَمْ تُجِبِ العَمَّةُ سالي عَلى الرِّسالَةِ الَّتي بَعَثَتْها لَها وأَخْبَرَتْها فيها بِرَغْبَةِ توم وأَخيه سِيد بِزِيارَتِها. وهُنا اعْتَرَفَ توم مُرْتَبِكًا بِأَنَّهُ تَسَلَّمَ الرَّسائِلَ مِنْ مَكْتَبِ البَريدِ وأَخْفى تِلْكَ الرِّسالَةَ عَنِ العَمَّةِ سالي حَتّى لا يُفْتَضَحَ أَمْرُهُ وأَمْرُ هاك.

ثُمَّ شَرَحَ توم خُطَّتَهُ لِإِنْقاذِ جيم ، وكَيْفَ أَنَّهُ كانَ يَنْوي «الهَرَبَ» بِهِ في النَّهْرِ حَتّى نيو أورْليانز وإِخْبارَهُ هُناكَ بِأَنَّهُ كانَ حُرًّا قَبْلَ إِطْلاقِ سَراحِهِ. ثُمَّ اقْتَرَحَ أَنْ تَكونَ عَوْدَةُ جيم عَلى مَتْنِ إِحْدى السُّفُنِ البُخارِيَّةِ الفَخْمَةِ ، وأَنْ تُقامَ لَهُ حَفْلَةُ اسْتِقْبالٍ كُبْرى عَلى أَنْغامِ فِرْقَةٍ موسيقِيَّةٍ ، مَعَ إِقامَةِ مَسيرَةٍ بِالمَشاعِلِ. وهٰذا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُذيعَ اسْمَهُ بَيْنَ النّاسِ الَّذينَ سَيَنْظُرونَ إِلَيْهِ كَبَطَلٍ وكَرَمْزٍ لِآمالِ كُلِّ الزُّنوجِ المُسْتَعْبَدينَ الَّذينَ يَتوقونَ إِلى الحُرِّيَّةِ.





أُخْرِجَ جيم مِنْ زِنْزانَتِهِ، وقَدِ احْتَفى بِهِ الجَميعُ وأَقاموا – تكْريمًا لَهُ – مَأْدُبَةً كُبْرى، وقُدِّمَ لَهُ مَبْلَغُ أَرْبَعينَ دولارًا لِأَنَّهُ كانَ سَجينًا نموذَجِيًّا طَوالَ تِلْكَ الشُّهورِ. واطْمَأَنَّ هاك وتوم أَيْضًا إلى مُسْتَقْبَلِهِما لِعِلْمِهِما أَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُما مَبْلَغًا يَفوقُ سِتَّةَ آلافِ دولارٍ عِنْدَ القاضي ثاتشر. ولٰكِنَّ هاك شَعَرَ بِشَيْءٍ مِنَ الحُزْنِ لِأَنَّهُ سَيَعود إلى حَياةِ المَدَنِيَّةِ. فَالعَمَّةُ سالي قَرَّرَتْ أَنْ تَتَبَنّاهُ وأَنْ تُرَبِّيَهُ تَرْبِيَةً صالِحَةً، وهٰذا ما كانَ قَدْ جَرَّبَهُ سابِقًا مَعَ المَرْحومَةِ الآنِسَةِ واتْسون، وذاقَ مَرارَتَهُ.

مارْك توين

وُلِدَ مارْك توين، واسْمُهُ الحَقيقِيُّ صَمْويل لانغْهورْن كليمنْس، في فلوريدا بِوِلايَةِ ميسوري، في الثَّلاثينَ مِنْ تِشْرينَ الثّاني (نوفمبر) عامَ ١٨٣٥. ذاقَ الفَقْرَ في طُفولَتِهِ، إذْ إنَّ والِدَهُ – بالرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهِ مُحِبًّا لِلعَمَلِ – لَمْ يُوَفَّقْ في أَيِّ عَمَلٍ قامَ بِهِ. عِنْدَما وُلِدَ مارْك توين كانَ والِدُهُ، جون مارْشال كليمنْس، يَمْلِكُ مَتْجَرًا صَغيرًا في فلوريدا، ولٰكِنَّهُ خَسِرَ المَتْجَرَ، فاضْطُرَّتِ العائِلَةُ لِلانْتِقالِ حَوالَى ثَمانِيَةٍ وأَرْبَعينَ كيلومِتْرًا، إلى بَلْدَةِ هَنيبال، الواقِعَةِ قُرْبَ نَهْرِ المِسيسِبي. وقَدْ نَشَأَ هُناكَ وهُوَ يُراقِبُ السُّفُنَ البُخارِيَّةَ تَمُرُّ في النَّهْرِ، وشَهِدَ تَطَوُّرَ الحَياةِ في تِلْكَ البَلْدَةِ الصَّغيرَةِ. وحَمَلَ – خِلالَ حَياتِهِ – ذِكْرَياتٍ لا تُنْسى مِنْ بَلْدَةِ هَنيبال، فكانَتْ تِلْكَ الذِّكْرَياتُ مَصْدَرَ وَحْيٍ لِكَثيرٍ مِنْ رِواياتِهِ، وخُصوصًا «**مُغامَرات ها كلبري فِين**» (The Adventures of Huckleberry Finn)، وهِيَ مِنْ أَرْوَعِ آثارِهِ.

أُضْطُرَّ مارْك توين لِتَرْكِ المَدْرَسَةِ وهُوَ في الثّانِيَةَ عَشْرَةَ، عِنْدَما تُوُفِّيَ والِدُهُ سَنَةَ ١٨٤٧، فَتَمَرَّنَ على العَمَلِ في مَطْبَعَةٍ. ثُمَّ قامَ هو وأَخوهُ أوريون، الَّذي كانَ قَدْ سَبَقَهُ إلى هٰذِهِ المِهْنَةِ، بِطِباعَةِ صَحيفَتَيْنِ مَحَلِّيَّتَيْنِ. واكْتَشَفَ أَنَّ حَظَّ أوريون المِهْنِيَّ لَنْ يَكونَ أَحْسَنَ مِنْ حَظِّ والِدِهِ، فَتَرَكَهُ وتَوَجَّهَ شَرْقًا حَيْثُ عَمِلَ في بَعْضِ الصُّحُفِ في سانت لُويس ونيويورك وفيلادلفيا. عامَ ١٨٥٧ تَوَجَّهَ إلى نيو أورْليانز، وقَرَّرَ أَنْ يُجَرِّبَ نَوْعًا جَديدًا مِنَ العَمَلِ، فَأَخَذَ يَتَدَرَّبُ على قِيادَةِ السُّفُنِ البُخارِيَّةِ. وأَثَرُ هٰذِهِ الفَتْرَةِ مِنْ حَياتِهِ ظاهِرٌ بِوُضوحٍ في كِتابِهِ «**الحَياة في المِسيسِبي**» (Life On The Mississippi) (١٨٨٣).

عِنْدَما انْدَلَعَتِ الحَرْبُ الأَهْلِيَّةُ الأَميرِكِيَّةُ ، سَنَةَ ١٨٦١ ، انْضَمَّ إلى أَحَدِ التَّنْظيماتِ المُسَلَّحَةِ ، ثُمَّ جَرَّبَ التَّنْقيبَ عَنِ الفِضَّةِ فَلَمْ يُوَفَّقْ.

لَمْ يَعْرِفْ مارْك توين الشُّهْرَةَ إلّا كَصَحَفِيٍّ وكاتِبٍ هَزْلِيٍّ. وقَدْ حَقَّقَ أَوَّلَ نَجاحٍ لَهُ سَنَةَ ١٨٦٥ لَدى نَشْرِ مَقالَتِهِ «**جيم سمايلي والضِّفْدَع الوَثّابَة**» (Jim Smiley and His Jumping Frog) . في إثْرِ ذٰلِكَ ، عُهِدَ إلَيْهِ بِالسَّفَرِ إلى جُزُرِ هاواي ، وقَدْ أَرْسَلَ مِنْ هُناكَ مَقالاتٍ ساخِرَةً. ثُمَّ قامَ بِإلْقاءِ سِلْسِلَةٍ مِنَ المُحاضَراتِ النّاجِحَةِ. سافَرَ ، بَعْدَ ذٰلِكَ ، إلى فَلَسْطينَ وإلى أوروبا ، فَأَثْمَرَتْ رِحْلَتُهُ تِلْكَ كِتابَهُ الرّائِعَ «**الأَبْرِياء في الخارِج**» (The Innocents Abroad) الّذي نَشَرَهُ سَنَةَ ١٨٨٩ ، وقَدْ بيعَ مِنْهُ في السَّنَةِ الأُولى سِتّونَ أَلْفَ نُسْخَةٍ.

بَعْدَ أَنْ تَبَوَّأَ مارْك توين – بِكُلِّ جَدارَةٍ – مَرْكَزَهُ كَكاتِبٍ شَعْبِيٍّ ، ازْدادَ إنْتاجُهُ ، فَظَهَرَتْ لَهُ رِواياتٌ ناجِحَةٌ مِنْها : «**مُغامَرات توم سُوير**» (The Adventures of Tom Sawyer) و«**مُغامَرات هاكلبري فِين**» (The Adventures of Huckleberry Finn) و«**أَميرِكِيّ مِنْ كونَتِكت في بَلاط المَلِكِ آرثر**» (A Connecticut Yankee at King Arthur's Court) ، و«**وِلْسون المُغَفَّل**» (Pudd'nhead Wilson) . وبِالرَّغْمِ مِنْ نَجاحِهِ وشَعْبِيَّتِهِ لَمْ يَكُنْ راضِيًا ، وكانَ يُنْفِقُ كُلَّ المالِ الّذي يَجْنيهِ مِنْ كُتُبِهِ عَلى مَشاريعَ تِجارِيَّةٍ فاشِلَةٍ ومُغامَراتٍ واخْتِراعاتٍ ، حَتّى إنَّهُ كانَ يَقَعُ في الدَّيْنِ أَحْيانًا. مَعَ تَقَدُّمِهِ في السِّنِّ شَعَرَ بِخَيْبَةِ أَمَلٍ مِنَ الوُجودِ وسَيْطَرَ عَلَيْهِ التَّشاؤُمُ حِيالَ مُسْتَقْبَلِ الجِنْسِ البَشَرِيِّ. وقَدْ ظَهَرَ في كِتاباتِهِ الأَخيرَةِ شَيْءٌ مِنْ هٰذا التَّشاؤُمِ فاجَأَ القُرّاءَ الّذينَ عَرَفوهُ كاتِبًا طَريفًا ومُسَلِّيًا. تُوُفِّيَ مارْك توين سَنَةَ ١٩١٠ .

